الدكتور صلاح الدين المنجد

أعمدة النكبة

بحث علمي في أسباب هزيمة ٥ حزيران



دار الكتاب الجديد

الدكتور صلاح الدين المنجد

أعمدة النكبة

بحث علمي في أسباب هزيمة ٥ حزيران

دار الكتاب الجديد

أعمدة النكبة

الطبعة الاولى : ديسمبر ١٩٦٧

الطبعة الثانية : شبـــاط ١٩٦٨

تمهيد

كانت النكبة الأخيرة يوم ٥ حزيران ١٩٦٧ من أعظم النكبات التي مرّت بالعرب في تاريخهم الحديث .

ولا أقول في تاريخهم الماضي ، لأن العرب أصيبوا من قبل بنكبات أعظم هولاً ، وأبلغ أثراً ، لكنهم استطاعوا أن يتغلّبوا عليها ، ويتابعوا سيرهم .

وكان سبيلهم للتغلب على مصائبهم معرفةَ أخطائهم ، والجهرَ بها ، بل وتضخيمها حتى يعرفها كل انسان ويتحاشى الوقوع فيها مرة ثانية .

ولعل من بوادر الأمل للتغلب على النكبة ما انطلق من المفكرين وأهل الرأي والقلم ، بل من الحكومات العربية نفسها ، من دعوات للنقد الذاتي ، وإظهار الأخطاء ، وعدم إخفاء الحقيقة .

وقد تكون أخطاؤنا فظيعة ، مؤلمة ، بشعة ، وقد تكون

الحقيقة كالعلقم مرّة ، وقد تكون نفوسنا حساسة لا تقبل الاعتراف بالهوان أو تذوّق المر ، لكن وجودنا أعظم من ذلك كله ، ولا بد في سبيل ضمان هذا الوجود من تحمّل كل مصيبة ، والتغلب عليها .

فالجهر بالخطأ أصبح فرضاً واجباً ، مهما كان مصدره وسببه .

وإظهار الحقيقة ، سواء كانت فيما يتعلّق بواقعنا ، أو بواقع من ينازعنا حقوقنا ، ووجودنا ، أصبح بعد النكبة أمراً لا بد منه .

لأن عهد إخفاء الحقائق وتشويهها ، وتضليل الجماهير وتخديرها ، ينبغي أن يزول .

من هنا يجب أن نبدأ ، لننطلق فنبني ونحيا .

وما القصد من ذلك التشهير ، بل معرفة موضع المرض والوصول الى معالجته .

ومن المؤسف أن الدراسات التي صدرت عن النكبة حتى اليوم تعد على الأصابع . بعضها عالج أطرافاً من النكبة ، أو ذكر بعض الأخطاء ، وبعضها آثر الغمغمة بدلاً من الجهر بالحقيقة ، وبعضها حاول تبرير الأخطاء وايجاد المعاذير . إنها كلّها لم تكن كافية .

فلو أن مثل هذه النكبة وقعت بأمة حيَّة فعلاً ، لصدر عنها مئات الكتب والدراسات .

وسيجد القاريء في الفصول التالية « الأعمدة » الأساسية التي قامت النكبة — في رأينا — عليها .

وأملنا أن يجد فيها العالم العربي مناراً للتفكير ، ومناراً للطريق ، ووسيلة الى غد مشرق منصور .

بيروت　　　　　　　　　　　　　　　　المنجد

مقدمة الطبعة الثانية

ما كادت الطبعة الاولى من هذا الكتاب تظهر في اواخر ديسمبر ١٩٦٧ حتى اقبل القراء عليها اقبالا رائعا . واوتى الكتاب اهتماما كبيرا ممن يوافقونا في رأينا وممن يخالفوننا فيه . فللمرة الاولى بعد النكبة المريرة يصدر كتاب يعالج الامور بصراحة . وكان من حق العرب جميعا ان يصدروا عشرات الكتب .

ومما اثلج صدرنا ان اقوال المسئولين في القاهرة التي صدرت بعد ظهور كتابنا ، جاءت تؤيد جميع ما ذهبنا اليه . فكان هذا دليلا على سداد النهج الذي اتبعناه ، والنتائج التي وصلنا اليها .

والمأمول ان ينتفع العرب مما جاء في كتابنا ، وان يسهم آخرون في بحث الموضوع .

شباط ١٩٦٨

صلاح الدين المنجد

الفصل الأول
فقدان الإيمان

إن الذي يستقرىء تاريخ الإنسانيَّة يجد أن الأعمال العظيمة التي تمت عبر الأجيال ، سواء كانت فردية أو جماعية ، ما تمَّت الا بالإيمان . فالإيمانُ كان دائماً المحرِّكَ الأَول والدافع الأَعظم لتحقيق القضايا العظمى ، أو لتبديل الأَوضاع السيئة بأوضاع حسنة . إن تاريخ الديانة النصرانية وانتشارها يدلُّ على ان المسيحية لم تنتصر وتنتشر الا بإيمان الحواريين وتلاميذ المسيح الذين قهروا الدولة الرومانية على قوَّتها وجبروتها . هؤلاء المؤمنون الأَوَّلون لم يحفلوا بالتعذيب ولا التشريد ، ولم يبعدهم عن إيمانهم ما رأوه من التنكيل والإفناء والقتل ، كان هناك إيمان بالله يدفعهم ويُلْهب جوانحهم .

والإسلام نفسه ما كان انتشاره وذيوعه في العالم المعروف يومئذ ، وبسرعة نادرة ، الا بالإيمان . الإيمان الذي كان عميقاً قوياً في نفوس المسلمين الأَوَّلين ، فصنع العجائبَ ، وفتح الممالك ، وأثار النفوس ، وجعل الواحد ألفاً ، والضعيف في الأَمس بطلاً . فتغلَّبوا على مئات الألوف ممَنْ هم أقوى منهم عُدة ، وأعظم عدداً : تغلَّبوا على فارس وبزنطية ، تغلبوا على حضارتين عظيمتين ، أخذ الوهن يدبُّ فيهما . فلم ينفع جنودَ فارس والروم ما كان عندهم من أسلحة ضخمة ، وعتاد ثقيل ، وفِيلة مدرَّبة على القتال ، لأن السلاح اذا لم يحرِّكه العقيدةُ ويهزُّه الإيمانُ لا شأن له . إنه يكون أضعف من العيدان التي يمسك بها الأَطفال . ولم يكن المسلمون يومئذ في القوَّة وفي العَدَد إلا أقلَّ من اولئك ، لكنهم كانوا بإيمانهم أضعافاً مضاعفة ، الواحد منهم بعشرة ، بل بمئة وألف . لا يخشون سلاحاً، ولا يرهبون عدواً، ولا يخافون موتاً. وكانت أرواحهم عامرة بالإيمان الذي ينسف الجبال ، ويهدم الحصون ، ويأتي بالخوارق

والعجائب ، ويهزأ بالمخاطر . وكان الذي يزيد ايمانهم تأججاً وانطلاقاً أنهم آمنوا بعقيدة ثابتة تنفع الإنسانية فيها العزة، والمساواة ، والحرية ، والكرامة ، والرحمة ، والعدل ، والمحبة ، والحلم ، والعفاف ، والعلم ، والصبر ، والصفح ، والتعاون . عقيدة علت وسَمَتْ على المادة والشهوة والغرض ، وجاءت تحطم كل عنصرية جاهلية، وجنسيّة ، وقومية ، ووثنية .

إن تاريخ الأفكار الانسانية لم يعرف دعوةً أشرفَ من دعوة هؤلاء المؤمنين ولا أنبل . ألم تجعل كلّ مسلم أخاً للمسلم أينما كان ، مهما كان لونه وجنسه ووطنه ، ألم توّحد ديارَ المسلمينَ كلَّها ، فهي وطن لكل واحد منهم، ليس ذاك الذي ولد فيه فقط ؟

والأعظم والأروع أن هذه الدعوة النبيلة ، وذاك الإيمان الحارّ جعلا من قوم كانوا يأكلون الخنافس والجُعْلان ، والعقارب والحيّات ، ويقتل بعضهم بعضاً فيأكل القويّ منهم الضعيف ، ويأتون الفواحش منوّعات، وقد يدفن أحدهم ابنته حية كراهية أن تأكل

من طعامه ، ويسيئون الجوار ، وينهبون ويغزون ، ويقطعون الأرحام ، ويكذبون ويفترون ، يستضعفهم الروم والفرس ويحتقرونهم ، لأنهم كانوا لا يعرفون نظاماً ، ولا سياسة ، ولا حضارة ، الى مفاسد اخلاقية واجتماعية أخرى ، أقول ، جعل الايمان من هؤلاء القوم أناساً آخرين يعبدون الله بدلاً من الأصنام والأحجار ، ويصدقون في الحديث ، ويؤدّون الأمانة ، ويصِلون الرحم ، ويحسنون الجوار ، ويكفّون عن الفواحش ، تتفتح قلوبهم وعيونهم لمعرفة كل شيء ، واذا بهم ، بفضل ذلك الايمان ، يصبحون سادة الدنيا : يغزون الأمم في ديارهم ، فيخرجونهم من الظلم الى العدل ، ومن الفقر الى الرخاء ، وصارت تلك الأمم أحاديث وأقاصيص ، وعِبَراً وذكريات « وأورثنا القومَ الذين كانوا يُسْتَضْعَفونَ ، مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها » (سورة الاعراف ١٣٧) ، وملكوا الدنيا ، وصاروا أئمة وهداةً للعالم في العلم والعدل والرحمة .

وكان سرّ ذلك أن الاسلام جعلهم خلقاً جديداً ،

لقد بدّلوا أنفسهم الجاهليات ، وحملوا رسالة هدى ، لا لأنفسهم وحدهم ، بل للعالم كله . صار هدفهم خـــير الانسانية كلّها ، بدعوتها الى قيم روحية تضمن لها أكبر قسط من سعادة الدنيا ، لا تهمل حظ الجسم من الحياة ، ولاحظ الروح من البهجة ، وتبشّر بـــأخوة انسانية شاملة .

وأحبّ أن أنقل هنا حكاية أوردها المؤرّخ الثبت ابن كثير في تاريخه « البداية والنهاية » تصوّر هؤلاء القوم عندما كانوا يحاربون. قال خالد بن الوليد لأهل قنّسرين: إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله اليكم، أو لأنزلكم الينا، ولم يزل بهم حتى فتح المدينة .

وذكر أن هرقل قال للروم من أصحابه ، وهو على أنطاكية ، والروم عائدون اليه منهزمون :

ـ ويلكم ! أخبروني عن هؤلاء القـــوم الذين يُقاتلونكم . أليسوا بشراً مثلكم ؟

قالوا : بلى . قال : فأنتم أكثر أم هم ؟

قالوا : بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كل موطن .

قال : فما بالكم تنهزمون ؟

قال شيخ من عظمائهم : من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر ، ويتناصفون بينهم ، ومن أجل أن نشرب الخمر ، ونزني ، ونركب الحرام ، وننقض العهد ، ونغصب ، ونظلم ، ونأمر بالسخط ، وننهي عما يُرضي الله، ونفسد في الارض .

فهذا الإيمان بقِيَم السماء هو الذي ألهب الجوارح ، وشرح الصدور ، وبعث في النفوس الخامدة الحياة، فإذا هي قوية عنيفة صلبة ، مندفعة لإحقاق الحق ، ونشر الدعوة ، وتحطيم الظلم ، كالاعاصير ، وكالبراكين . فكان لهم بإيمانهم النصر بعد الخذلان ، والسيادة بعد الانانية ، والعبودية والذلة .

❁ ❁

وسر العجائب التي تنتج عن هـــذا الإيمان بالمفهوم

الإسلامي أنه يحتّم النصر ويضمنه للمؤمن لأُمور أربعة:

١ً ــ هذا الإيمان يرفع من قلب المؤمن خوف الموت، فلا يخشى بعد ذلك قتالاً، ولا يرهب عدواً، لأَن عمر الإنسان مقدّر (فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون) . وتحرّر الإنسان من خوف الموت هو الذي يبعده عن الجبن والتقهقر ، أو الفرار والإحجام .

٢ً ــ وهذا الإيمان يُدخل في قلب المؤمن أنه اذا انتهى أجله مُقاتلاً فسيكون له جزاءٌ أوفى ، لأنه يموت شهيداً ، فتكون له الجنة ، وهي خير من الدنيا . لذلك يرغب في الإقدام ، فإن عاش انتصر ، وإن مات كانت الجنة له .

٣ً ــ وهذا الإيمان يُدخل في قلب المؤمن أنه سينتصر حتماً على عدوه ، لان الله وعد المؤمنين بالنصر . فتكون قدرته المعنوية قوية جداً . فيقبلُ على عدوه صادق العزم ، ممتلئاً بالإخلاص والحماسة ، عزيز النفس كما

قال خالد بن الوليد لأهل قنّسرين وهو مؤمن بالنصر :
« والله لو كنتم في السحاب لَحَمَلَنَا الله إليكم ... »

٤ً ـ وأخيراً فإن هذا الإيمان لا يمكن أن يداخله شك ، أو تؤثر فيه أي صدمة ، لأن صاحبه يعتقد ، بكل جوارحه ودمه أن رسالة الإسلام ببساطتها ووضوعها وسمّوها ، خير رسالة جاءت للانسان ، وأن المسلمين كانوا خير أمة أخرجت للناس .

أما اليوم فقد عاد العرب الى جاهليتهم. فقدوا ذلك الإيمان، وتلك الحرارة ، وذلك الاندفاع والانطلاق ، والاخلاص العميق ، واعتادوا الذل ، وتمسكوا بالمادة ، صفات الروم التي خذلوا وكسروا بها . فلو سُئل اليوم سائل عن هؤلاء العرب لقال : إنهم قوم يكثرون الكلام ولا يعملون ، وينقضون العهود ولا يفون ، يتنازعون ولا يتّفقون ، يغضبون ويظلمون ، ويغيرون على الأعراض ويشتمون ، يأمرون بكل ما نهى الله عنه ويُلحدون ، يفتري بعضُهم على بعض بالباطل ، وفي

الأرض يفسدون ، يعبدون الحكام وإليهم يتزلّفون ، ينهمكون في اللذات ، ويجرون وراء الأموال ، لا إيمان عندهم يحرّكهم ، ولا قِيمَ روحيةً تدفعهم .

يريدون أن ينتصروا على أعدائهم ، وما أكثر اعداءهم ، ولكن بأي شيء ؟

أبتنازعهم وتناحرهم وكان إيمانهم بالله يدعوهم أن يتضامنوا ؟

أبجهلهم وقد سبقتهم الأُمم بالعلم، وسبقوها بالجهل، وكان دينهم يدفعهم الى العلم دفعاً ؟

أبضعفهم وقد فاقتهم الأمم بقوّتها ، في كل ميدان ؟

أبكفرهم وقد تركوا القيم الروحية والأخلاقية ، ونادوا بالقومية الجاهلية تارة ، وبالاشتراكية الماركسية الملحدة تارة أخرى ؟ وما كانت هاتان الدعوتان إلا هدماً للدين ، وسحقاً لما أنزلته السماء !

بأي شيء يريدون أن ينتصروا ويتفوقوا ؟

لقد تخلَّى العرب عن إيمانهم بالله، فتخلَّى الله عنهم .

أصبحوا اليوم لا يحملون رسالة هـدي وخير ، بل يتبعون عقائد مستوردة كلها هدم وشرّ .

أصبحوا أذناباً تنتظر ان يعلّمها تيتو وكوسيغين ، لا معلّمين يوجّهون العالم ومرشدين .

أصبحوا ظلالاً لعقائد ، وأبواقـاً لمذاهب ، بعد أن كانوا ينفخون الحياة في الأمم برسالتهم فتستجيب لهم .

أصبحوا أمواتاً، لا تتأجّج في قلوبهم النار المقدسة ، نار الإيمان بالله .

* *

وكان الغرب الدافع الأول الى ذلك .

فقد بذر في عقول المغفّلين ، في أوائل هذا القرن ، بذرة القومية والوطنية،فدخلت ـ كما يقول المؤرخ الكبير برنارد لويس في كتابه « الغرب والشرق الأوسط » : دخلت هرطقة القومية العلمـانية ، أو « عبـارة الذات الجماعية » (للعالم العربي الإسلامي) وكانت أرسخ المظالم التي أوقعها الغرب على الشرق الأوسط » ص ١٠٥ .

وكان من أوائل الذين هلَّلوا لهذه الفكرة الشيخ ناصيف اليازجي، وبطرس البستاني، وكان من أواخرهم قسطنطين زريق وساطع الحصري وميشيل عفلق .

لكنَّ الباحث المنصف ، لا يجد من ثمار هذه الدعوة الى القومية والوطنية في أوَّلها إلَّا هدم الخلافة العثمانية ، وفي آخرها إلا الابتعاد عن الدين وعن الإيمان .

ونتج عنها من ناحية أخرى ، أن العرب لم ينالوا استقلالاً ولا حرية بعد انكسار العثمانيين وتمزُّق الامبراطورية العثمانية ، بل كسبوا انتداباً وحماية واستعماراً، وصار العثمانيون المسلمون « مستعمرين » في نظر القوميين ، إتِّباعاً لما يقوله الأوربيون .

وظهرت فكرة الاشتراكية في العالم العربي ، فكان أول من هلَّل لها شبلي شمّيل وسلامة موسى من مصر ، حتى جاء عفلق وحوَّر دعوته القومية إليها ، وبقيت الفكرة تُقرأ في الكتب حتى فرضتها القوة العسكرية في القاهرة ودمشق .

ونتج عن هذه الاشتراكية الثورية التي فُرضت بالقوة والإرهاب : الخراب والدمار والفقر ، وفقدان الحرية ، وتسلُّط الإرهاب ، ونتج عنها أيضاً النكبة الأخيرة .

لكن الحقيقة التي لا تقبل المناقشة أن الدعوة القومية بقيت نداءً فارغاً تثيره الحماسة والغوغائية والآمال العريضة بوحدة عربية شاملة ، غامضة الشكل ، لم يوضع لها خطة ، ولا أيّدها نظام اجتماعي كامل . كما بقيت الاشتراكية نداءً راعباً لأنها لم تحقق للبلاد التي طبقت فيها الرخاء والسعادة ، ولا حلَّت مشكلاتها الاقتصادية ، ولا نشرت العدالة والمساواة ، ولا ضمنت تكافؤ الفرص . فضلاً عن أنها فرضت بالقوة والإرهاب . فجفل عنها الناس جميعاً ، وما تبعها إلا المنتفعون والمرتزقون ، وأصحابُ العقد النفسية الحاقدون. وهكذا بقيت هاتان الدعوتان سطحيتين ، لأنهما أوّلاً قامتا على المادة والعصبية ، ولم تعتمدا على الروح . ولا يثير العربيّ إلاّ ما هزّ روحه وداعب عواطفه وآمن به . ولم يُخرج

العربيَّ من ظلماته وعصبيته وجهالته الا دينُ السماء .
ولأنهما، ثانياً، لم تنبعا من داخل الوطن العربي،من ضمائر الناس ، ومن حاجاتهم: فكلتاهما غريب جاء من الغرب.
ولأنهما ، ثالثاً ، لم تبرهنا على صلاحهما للمجتمع العربي بعد أن جُرّبتا فيه .

وهكذا ضاعت خمسون سنة أو أكثر من حياة الأمة العربية في تجربتين فاشلتين ، أعادتا الأمة العربية الى الوراء قرناً أو أكثر فيما نتج عنهما من اختلاف ابناء الأمة وانقسامها، وتناحرها ، وفقرها ، وجهلها وغير ذلك .

* *

ولقد جعل بعضُ الأساتذة والأدباء، الدين ــ بشكل مباشر أو غير مباشر ــ سبباً للنكبة، أو جعلوا الخروج من النكبة معلقاً بالابتعاد عن الدين . فكتب أحدهم في كتابه « معنى النكبة » ، ثم أعاد ذلك في « معنى النكبة مجدداً»[١] أنه يجب للتغلب، على النكبة والنكسة، «فصل

(١) انظر : قسطنطين زريق ، في كتابه معنى النكبة مجددا ، ص ٩ .

الدين عن الدولة». وهذه الدعوة تدعو هي الى التساؤل: لماذا أدخل الكاتبُ الدينَ هنا ؟ لقد كان مبدأ فصل الدين عن الدولة ، كما هو معروف ، احتجاجاً على طغيان الكنيسة في أوروبة على أتباعها ، وثورة على تصرفات رجالها ومحاربتهم العلم والحرية، وفرضهم القيود والسدود على النصارى . وقد مضى هذا المبدأ ، وأصبح مما يدرّس من أمور التاريخ . ولا مبرر لإقحامه في أسباب النكبة ولا في ما يجب عمله للنهوض منها. فليس في البلاد العربية ظروف كالظروف التي دعت الى خلق هذا المبدأ: ليس فيه كنيسة تحكم الدولة وتطغى ، أو تحارب العلم ، أو تسحق الحرية. وليس فيها من يطبق الشرع الإسلامي إلا المملكة السعودية ، وهي تتقدّم بخطىً متزنة أكثر بكثير من الدول الاشتراكية الثورية التي طلّقت الدين وحاربته . ولم تكن السعودية السبب في النكسة . وإذن فما معنى إقحام فصل الدين عن الدولة هنا ؟ إني لا أجد تفسيراً له إلا تشكيك الأجيال العربية الشابة بالدين .

ولقد أصبح معروفاً وثابتاً أنّ الذي سبَّب النكسة هم الاشتراكيون الثوريون لأسباب كثيرة سنذكرها . ولقد كانت الكسرة لهم وحدهم بالدرجة الأولى ، كما أنّ الهزيمة كانت قبل كل شيء للمبادىء الاشتراكية الملحدة المخرّبة التي تبنوها . والتي أثبتت أفلاسها بعد النكبات الشِداد التي سبَّبتها للبلدان التي طبقت فيها مما عرفه كل صغير وكبير .

فلو كان الكاتب منصفاً لدعا في كتابه «معنى النكبة مجدداً» الى إبعاد الاشتراكيات ـ التي ظهرت بعد النكبة الأولى ـ عن الحكم، ولحمَّلها مسئولية الهزيمة، ومسئولية تأخر العرب الى الوراء ، بدلاً من طلبه إبعاد الدين عن الدولة . لأن الدين غائب عن الدولة وعن الميدان . ولو كان الدين موجوداً بتعاليمه وروحه ، لما كانت النكبة .

وبينما نرى الكاتب يطلب فصل التراث الروحي عن الدولة ، نقرأ أن غولد برغ ممثل الولايات المتحدة في الأمم المتحدة لا يخجل من أن يقول علناً : إني صهيوني،

لأني مخلص للتراث الروحي للشعب اليهودي (الأهرام ٢٣/٨/٦٧ ، ص ٥) . فلو كان في التراث الروحي ضرر لليهود ما تمسَّكوا به !..

وثمة أديب مشهور كبير سُئل عما يجب فعله للنهوض من النكبة ، فطلب من العرب أن يتركوا الدين تماماً ، وأن يتجهوا نحو المال والعلم .

قال: «في رأيي أنَّ الدرس الأكبر والأهم الذي يحسن بالعرب أن يتعلّموه من هزيمتهم النكراء هو أن الدنيا لا تُساس بالدين ، فالدين موطنه السماء التي لا يعرفها أحد ، والدنيا موطنها الأرض التي لا يجهلها أحد .

وقال: الدين يأبى أن يطرأ عليه أي تغيير او تبديل من جيل الى جيل ، في حين أن الدنيا تتغير وتتبدل في كل رفّة جفن .

ثم خلص الى القول بأن العرب إذا أرادوا ان يستردوا حقوقهم «فما عليهم إلا ان يتعبدوا العلم والمال .

ولعل العلم والمال لا يخذلانهم حيث خذلهم ربهم »[1] .

إن هذا الأديب يوجه كلامه الى الدول العربية التي يدين غالبُ أهلها بالإسلام ، فهل يقصد بكلمته ان يترك العرب دينهم هذا قبل كل شيء ؟

ما أدري لماذا لم يدعُ الأديبُ العربَ ان يتمسكوا بالعلم والمال والدين معاً ؟ إذن لكان لدعوته وزن وقيمة . وقد دعا الشاعر الكبير محمد إقبال الى جمع العلم والعقيدة معاً . فقال : إن العلم والفطانة اذا اجتمعا مع عقيدة الإله وحبه والشوق اليه لأحدث ذلك ثورة جديدة في التفكير . وما أحوج العالم الإسلامي اليوم الى هذه الثورة الفكرية . فلقي كلامه كل استحسان .

ولا أعتقد أبداً ، ويشاركني في رأيي الكثيرون ، أن الدين كان سبب نكستنا .

إن االدين ، وخاصة الإسلام،لا يمنع الناس مما يدعو

---

(١) ميخائيل نعيمه ، في مجلة الآداب عدد تموز – آب ١٩٦٧ ، ص ٤ .

اليه الأديبُ ، بل هو يدعو الى العلم ويدفعهم إليه دفعاً . ولو قرأ الأديب الكبير القرآن والحديث ، لوجد أن الإسلام دعا الى المعرفة والعلم والكشف والبحث والتفكير . وجعل للعلماء درجات عليا في المجتمع وفي المثوبة .

لقد بدأت رسالة محمد بقول الله : (إقرأ باسم ربك الذي خلق).فكيف تكون هذه الرسالة لا تدعو الى العلم؟

ولقد أثبت المسلمون تمسكهم بالعلم ، وبراعتهم فيه عندما نهلوا من معارف الأمم السابقة،ثم أعطوا الإنسانية معارف كثيرة في جميع الميادين ، كانت سبباً لنهضة الغرب . حتى قال العالم بريفولت في كتابه « بناء الانسانية » : « ليس ثمة ناحية من نواحي الازدهار الأوروبي إلا ويمكن إرجاع أصلها الى مؤثرات الثقافة الاسلامية بصورة قاطعة » .

إن أمر تشجيع الاسلام للعلم ، وأمر تعلُّق العرب بالعلم وتفوقهم فيه شيء أصبح مفروغاً منه ، مقرراً

حتى في الكتب المدرسية .

والاسلام ، لا يدعو الى الضعف ، والتخاذل أمام الأعداء ، ولا يدعو الى الجبن والاستكانة ، بل يدعو الى القوَّة والاستعداد (وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة) .

ويقول ديورانت في كتابه تاريخ الحضارة : « ليس في التاريخ دين غير دين الاسلام يدعو أتباعه على الدوام الى أن يكونوا أقوياء. ولم يُفلح في هذه الدعوة دين آخر بقدر ما أفلح الاسلام »[1] .

الاسلام دعوة دائمة الى الجهاد ، والجهاد لا بد له من القوة . وإذن فالاسلام دعوة دائمة الى القوة .

والدين الاسلامي ، الى ذلك ، لا يدعو الى زهد وتبتل وعزوف عن الحياة ، لكنه يطلب من المؤمن أن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً فينعم ، وينتج، ويعطي ، وأن يعمل لربِّه كأنه يموتُ غداً ، ليكون دائماً محاسباً نفسه ، فلا يظلم ولا يطغى . فهنا اعتدال وتوازن

---

(١) تاريخ الحضارة ١٣ /٦٨

وتناسق بين مطالب الجسم ومطالب الروح لا تجدها في الشرائع ، ولا العقائد الأخرى .

والاسلام لا يخيف أحداً . هو يؤمن بالمسيحية التي نزلت على عيسى ، وكان سمحاً مع أهلها . يقول المؤرخ برنارد لويس « وفي نظرة المسلمين الى الحضارة المسيحية والمسيحية نفسها تسامح وتساهل أكثر بكثير مما في نظرة أوروبا المسيحية المعاصرة ، التي تنظر الى الاسلام على أنه باطل وشر . وهذه النظرة المتسامحة من المسلمين تنعكس في المعاملة الحسنة والتسامح الكبير الذي يلقاه أتباع الديانة المسيحية في المجتمعات الاسلامية بالرغم من موقف المسيحيين كديانة منافسة للاسلام[1] » .

ونقل المؤرخ نفسه عن (ت . ا . لورنس) قوله : « لقد نجح الاسلام ، حيث فشلت المسيحية ، بمزج الايمان العميق والتسامح الديني الذي لم يشمل فقط غير المسلمين من الأديان الأخرى، بل شمل هذا التسامح حتى الهراطقة

(١) الغرب والشرق الأوسط ص ٣٨

والكفار . وإن تعايش مدارس فكرية عدة في التشريع الاسلامي المقدس هو برهان آخر على التسامح الاسلامي والاعتدال الاسلامي .

« ولقد كان الاسلام دائماً ، من الوجهة الاجتماعية ديموقراطياً ، أو على الأصح : عادلاً يرفض دائماً نظاماً كنظام الطوائف في الهند،وامتيازات كامتيازات الطبقة الأرستوقراطيـة في أوروبة . ومـا احتـاج الاسلام الى ثورة دامية لينشر فكرة تكافؤ الفرص وتقدير المواهب في العـالم الاسلامي ، فلقد جاءت الفكرة مع بدء الدعوة الاسلامية ... »[(١)] .

وإذن فما هو ذنب الدين ؟

إن الذنب هو ذنب العرب جميعاً ، لأنهم تركوا الدين وتعاليمه وأوامره . فما تجد فيهم من عيوب هي منهم وليست من الدين .

فتعاليم الاسلام تدعوهم دائماً أن يهيموا وراء العلم ،

(١) المصدر السابق ص ٨٣

فيكونوا علماء يبحثون وينقّرون في كل فن . وهذه التعاليم تدعوهم إلى القوّة والاستعداد ، وتأمرهم أن يكونوا متّحدين متضامنين. لكنهم نسوا الدين، وانطفأ من قلوبهم الايمان . جمدت عقولهم فهي لا تعطي ولا تبدع ، لا تبحث ولا تغوص . خـــارت قواهم فليسوا بالأقوياء . تناحروا وتنازعوا ففشلوا وذهبت ريحهم . هاموا وراء المادة وجمع المال واقتناص الشهوات، من كل نوع ، فأظلمت أرواحهم. لقد فقدوا الشعلة المباركة التي كانت تتأجّج في قلوب أجدادهم . تركوا السماء وبحثوا عن سفاسف الأرض وحدها . وانساقوا مع الأهواء ، وأهملوا العقل . فلمـــاذا ينصرهم الله إذا كانوا أنفسهم يهملون ما يجب أن يعملوه ليحيوا ويبقوا أعزّة .

أيُريد الكاتب أن يزيد العرب عمىً فوق عماهم ؟ أيريد لهم عودة غير سعيدة إلى جاهلية مظلمة آثمة ؟ أليست القوة بلا أخلاق خطراً على الانسانية ؟ أليس الانسان مركباً من جسم وروح ؟ إن الدعوة الى المادة

وحدها تخالف المنطق والعلم وسنن الحياة وروح التاريخ. فكل حضارة لا تهتم بالروح تنهار .

إني أعتقد جازماً أن المال والعلم والسلاح لا تفعل شيئاً ولا تفيد شيئاً إذا لم يكن هناك إيمان وأخلاق . إن التحقيقات التي أُجريت في أسباب النكسة في مصر ، وذكرتها الصحف الناصرية ، تؤيد ما نقول .

ولقد أذاعت وكالة نوفو ستي السوفيتية إثر النكبة « أن الجيش المصري كان يملك أحدث التكنيك عسكرياً من الدرجة الأولى ، وكان يمكن أن يستعمل بشكل فعال في ردّ أيّ إعتداء إسرائيلي .

ولكن الضباط المصريين والجنرالات ، لم يكونوا راضين ضمنياً عن الثورة ، ولم يكونوا عملياً على إستعداد للقيام بواجبهم العسكري والوطني .. »

يعني هذا أنهم لم يكونوا مؤمنين بالثورة فلم يحاربوا.

ولم يكن الإيمان بالله في قلوبهم أيضاً . فأصابهم ما أصابهم ، لأن الله وعد نصره للمؤمنين .

ولم تنفعهم المدرعات والصواريخ والتكنيك الروسي.

والعجيب أن هذين الكاتبين يحمّلان الدين، خفية وعلانية، تبعة النكبة، وإسرائيل التي انتصرت كانت تتمسك بالدين، وتدعو إليه، ولا تخجل من الجهر بذلك. وأذكر هنا بعض الأمثلة. ففي يوم السبت الثالث من حزيران (يونيه) ١٩٦٧ كانت إسرائيل في حالة حرب، لكن اليهود لم يعملوا يوم السبت إلا بعد أن أحلّ لهم الحاخام الأكبر العمل فيه. وكان بوسع إسرائيل أن تتجاهل الدين وتتجاهل التحريم. وعندما احتلّت القوّات الاسرائيلية أريحا وقف القائد الاسرائيلي امامها ونفخ ببوق (شوفار)، لأن النبي يوشع قبل الفي سنة واكثر، عندما هاجم اريحا، نفخ بالأبواق على اسوارها فتداعت، على ما ذكرته التوراة. (المعركة الثالثة ص ١٤١) وكان بوسع القائد الاسرائيلي ان لا يحفل بهذه الأمور. لكنه ذكرها، واستعاد ذكراها علانية، ولم يخجل بدينه وبما جاء في التوراة. فهل ضرّهم ان يتمسكوا بالدين بعد أن أخذوا بالعلم؟

ولقد وصف حسنين هيكل الجنود الإسرائليين بأنه كان أمامهم هدف قاطع : تكون اسرائيل أو لا تكون . (الأهرام ٢٠/١٠/٦٧) . يعني أنه كان يملأ قلوبهم إيمان بشيء . فهل كان عند العرب الاشتراكيين هدف قاطع : يكون العرب أو لا يكونون ؟

ومن ناحية ثانية نجد بعض علماء المسلمين يجعلون من أسباب النكبة الحضارة الغربيّة ، بل جعلها أحدهم العامل الأول في النكبة[١] . ولا أعتقد أن هذا صحيح. فالحضارة الغربية ليست كلها شراً ، وفيها محاسن كثيرة نحن بحاجة إليها . وفيها مناحٍ متعدّدة تفيدنا . لكنّا أهملنا المفيد ، وتمسكنا بما يسبب الانهيار والفساد . فلو كنا مؤمنين ، وكان إيماننا متأججاً مخلصاً ، لأخذنا كل حَسَن من حضارة الغرب ، يكون فيه قوتنا وتقدمنا وعلونا ـ فالحكمة ضالّة المؤمن يلتقطها أنى وجدها ـ

(١) انظر مقالة سماحة أبي الحسن الندوي في مجلة البعث الإسلامي « كارثة العالم العربي وأسبابها » ص ٧ (العدد العاشر . سنة ١٣٨٧ - يوليو ١٩٦٧) .

ولتركنا كل ما هو ضارٌ لنا . لكن انطفاء الإيمان في القلوب ، وجهلَ روح الإسلام ، هما اللذان جعلا العرب يأخذون من تلك الحضارة كل سيّء ، وكل فاسد ، فضعفت أخلاقهم ، وتعلَّقوا بالسفاسف ، وفقدوا روح الجهاد ، جهاد النفوس وجهاد الأعداء . وتراكمت في نفوسهم العقد النفسيّة ، وواجههم الغربُ ودُعاته بحملة تشكيك بالدين ، بأساليب مختلفة ، أقلّها القومية والإشتراكية ، فلم يقووا على دفعها وصفع دُعاتها ، بل انغرّوا وانساقوا ، وعظَّموا الداعين إليها . وأدى ذلك إلى إنحلال خلقي شمل الناس ، من مختلف الطبقات والمستويات . وسبب ذلك كله انعدام القيم الإنسانية والروحية من القلوب ، وابتعاد العامة عن المعرفة ، فأصبحوا لا يحسّون بقلق الروح ، ولا بأزمات الضمير .

* *

إن واقعنا اليوم مؤلم .

فنحن أمام جيل من الشباب مائع لا يؤمن الكثيرون منه بقيم روحية ولا سماوية .

جيل فارغ لا يحركه إيمان فيفجّر فيه طاقات الابداع ، ولا يملأ أدمغته ثقافة تدفعه الى الاكتشاف والتقدم .

جيل لا يربطه بالله رابط،ولا بأرضه ووطنه حب، يَسْتَسْهل الأمور ، ويتهالَك على اللذة ، ويبغي الظهور بأي سبيل. تنهكه عقد نفسية،ولايعرف تاريخه وماضيه.

ونحن أمام عامة عمياء وجَهَلة دهماء ، طبع الله على قلوبهم ، وطمس أفهامهم. يتبعون الناعقين بالمذياع ، يُصدّقون كل ما يسمعون ، ويردّدون كل ما يُلَقّنون ، يسلطهم الطاغون على المصلحين والمفكرين وأرباب الأقلام والأحرار بدراهم معدودات. يعبدون الأشخاص والحكّام دون وعي أو نقد وتمييز .

ونحن أمام أناس يدّعون أنهم مسلمون ، لكن الإيمان غفا في قلوبهم، فما حفظوا من الدين إلا شعائره الظاهرة، أما روحه فقد ابتعدوا عنها .

ونحن أمام ملوك ورؤساء مختلفي الأهواء والأهداف بعضهم يتبع النهج الصحيح ، ويدعو الى الدين، ويجعل

الدولة قائمة على الدعوة للاسلام ، لكن الدعوة ما تزال تفتقد الجهاز الضخم اللائق بها ، كما يقيم الاشتراكيون الأجهزة الضخمة لدعوتهم ، وتفتقد أيضاً القيادة المثقفة المؤمنة التي تدير الدعوة وتوجهها ، وتفتقد أخيراً الخطة والتكتيك لنشر الاسلام .

وبعضهم يحاربون الايمـــان بالله ، ويضلّلون بالاشتراكية ، ويبلشفون الاسلام ، ويدعون الى مبادىء ماركس ، وتجمعهم بتيتو الملحد الشيوعي المثل العليا ، ويخجلون من ذكر الاسلام ، ويعتذرون أنهم ذكروا الاسلام مرة واحدة في خطبهم، ويقولون إن قيام الدولة على أساس من الاسلام مخالف للتاريخ (١) .

ونحن أمام رجال دين لا يمثلون الاسلام ، احتكروا الدين على جهلهم به، فهم يُنافقون حيناً ويتملقون حيناً،

---

(١) أنظر كتاب «الفجر العربي» للصحفي الهندي كرانجيا . فصل : العروبة أولاً . أحاديثه مع الرئيس عبد الناصر . وقد نقلنا هذا النص عن مجلة البعث الاسلامي ، عدد سبتمبر ١٩٦٧ ، ص ٦ .

وأنظر لتوضيح مـــا ذكرناه في هذه الفقرة مؤلفاتنا : التضليـــل الاشتراكي ، بلشفة الإسلام ، التضامن الماركسي .

أو يعميهم ضيق عقولهم وضعف إيمـــانهم عن الدعوة الجريئة،فلا يجرأون علىقول الحق.أو يحول جهلُهم روحَ الاسلام السمحة دون إظهار محاسن الاسلام ، وتوضيحه بشكل يجاري العصر وتفهمه عقول أهل هذا القرن .

وعلّة هذا أنه ينقصنا! الإيمان العميق. وينقصنا، قبل كل شيء، العمل على إحياء الإيمان في كل قلب.

الإيمان الذي يحوّل الوحوش الى آدميين، والضالين الى مهتدين ، والهمج الى مواطنين صالحين ، والضعفاء الجبناء الى أبطال مغاوير ، والقلوب الفارغة الى صدور عامرة بالشجاعة والعزّة .

وتنقصنا القيادة الروحية التي تنفخ في روح الجماهير، فتجمع القلوب ، وتوّجه العقول ، وتهدي الضالين .

القيادة التي تدفع الناس ، بتحريك إيمانها وإيقاظه ، الى التضحية والفناء ، ونسيان الذات ، وبذل الغالي ، لبلوغ خير ، أو إدراك هدف .

القيادة التي تحل المشكلات التي يواجهها الإسلام ،

بمقتضى روح الإسلام، لا بمقتضى الحواشي الفقهية والآراء الجامدة المغلقة .

القيادة التي تقضي على الجراثيم البشرية التي تعيث فساداً في ميراثنا الروحي .

اننا بحاجة الى النصر، والتقدم ، والتعلّم والتفوّق، وإذن فنحن بحاجة الى الايمان .

ولقد جعل الله الايمان أساسَ كل نصر .

(وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض ، كما استخلفَ الذين من قبلهم ، وليمكّنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدّلنهم من بعد خوفهم أمناً ــ النور ٥٥) .

(ولا تَهِنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلَوْن إنْ كنتم مؤْمنين ــ آل عمران ١٣٩) .

(إنا لننصرُ رسلَنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ــ غافر ٥١) .

(يا أيّها الذين آمنوا إنْ تنصروا الله ينصركم _ محمد ٧) .

(وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنين . الروم ٤٧) .

فهنا نجد أن النصر مرتبط دائماً بالإيمان . فلو كان العرب مؤمنين حقاً لما انكسروا .

* *

ومن المضحك ، أن الاشتراكيات الثورية ، كانت قبل الكسرة الأخيرة تحارب الدين ، فلما هُزموا عادوا إلى الدين ، يستفزّون به مشاعر الناس ، ويدفعونهم به إلى الجهاد تارة ، وإلى طلب الفرج من الله والنصر .

وهكذا أصبحنا نسمع من إذاعة دمشق أغان تقول: « الله الله يا مفرّج المصائب ! »

وكانو قد نسوا الله من قبل تماماً ، بل جعله أحد كتّابهم مما يجب أن يوضع في المتاحف [1]

وأصبحنا نقرأ في صحف القاهرة ، أن أولي الأمر

---

(١) أنظر الفصل الثاني – في هدم القيم الروحية .

قرّروا طبع آيات الجهاد وتوزيعها على المواطنين وأفراد القوات المسلحة . وكذلك إصدار سلسلة من الكتب الصغيرة تشرح آيات الجهاد، ومعارك القتال الإسلامية[1] . وكانوا قبل الحرب قد قرّروا إرسال ٤٠ ألفاً من صور كل من عبد الوهاب، وشادية ، وعبد الحليم حافظ إلى ما سمّته الأهرام « جنودنا الرابضين في الجبهة »[2] . كأن وجوه هؤلاء المطربين تضمن لهم النصر !...

هذا إلى أحاديث كثيرة من الإذاعات تدعو إلى الجهاد والصبر والاستعداد للنصر .

وبعد أن كانت صحف القاهرة العقائدية ، وعلى رأسها الطليعة والكاتب والجمهورية تحارب الدين سراً وعلانية ، نجد الجمهورية يوم ٢٥ أغسطس تنشر مقالاً بعنوان « القيم الدينية تدعم النقاء الثوري والطهارة الثورية » أشاد بالإسلام وإيمان المسلمين الأوّلين الذين كانت حياتهم مثالاً للتضحية والبذل والفداء والنقاء

---

(١) أنظر الجمهورية ، الخميس ٢٤ أغسطس ١٩٦٧ ، ص ٧

(٢) أنظر الأهرام ، يوم ١ / ٦ / ٦٧ ، الصفحة الأخيرة .

والطهارة ، ولكن الكاتب ظلّ محافظاً على وقـــاحة الثوريّين فقـــال : إذا كانت حدثت (في الثورة المصرية) بعض الانحرافـات عن قيم النقـاء الثوري والطهارة الثورية ــ ومبادىء الدين جزء منها ــ فإن ذلك لم يأت بأي حال نتيجة البعد عن التمسك بالقـيَم والمثل الدينية، وإنما كانت تلك الانحرافات والأخطاء نتيجة عوامل موضوعية عديدة قد يكون عدم التمسك بالقيم الدينية واحداً منها . »

فانظر كيف اعترف الكاتب أن انحرافات الثورة كانت نتيجة لعدم التمسك بالقيَم الدينية . وانظر وقاحته في جعل مبادىء الدين من قيَم النقاء الثوري .

ولكن هل تكفي الآن الأحاديث والكتب لـكي يُقبل الناس على الجهاد ؟

وهـــل عملت الحكومات العربية ، على اختلاف أنواعها ، على إحياء الإيمان ليكون جهاد ؟

وهل تركت الثوريّات أي سلطة دينية أو مدنية

تستطيع أن تؤثر في القلوب وتُطاع، إلاّ هدموها أو سخّروها لأغراضهم ؟

هذا شيخ الأزهر، وجّه في ٦٧/٥/٢٢ بياناً الى العالمين العربي والإسلامي دعاهما فيه الى الجهاد في سبيل الله والعروبة، والقضاء على ابناء صهيون الأوغاد، وذكّرهم أن الرسول قال : إنّ في الجنة لمائة درجة ما بين الدرجة والدرجة كما بين السماء والأرض أعدّها الله للمجاهدين في سبيله ... الخ (الأهرام ٦٧/٥/٢٣) .

فمن الذي استمع الى كلام الشيخ ؟

أليس هذا الشيخ هو الذي كان يخرج لاستقبال كوسيغين الملحد؟ أليس هو الذي كان يُهنّيء بالثورة العراقية التي سفكت الدماء وخرّبت البلاد ؟

فكيف يصغي الناس إليه ؟

إنه لن يكون جهاد إذا لم يكن هناك إيمان .

❁

ومن الواجب أن نذكر أن كلّ الذي جرى لم يمض دون صدى عند المسلمين .

فقد لَّمحوا الى فقدان الإيمان بالله،وهزؤا من كل شيء غير ذلك .

ولقد أعجبني ما كتبه اثنان : الأول عالم أديب من الهند ، والثاني شاعر كبير من شرقنا العربي .

فقد عكس كلاهما وجهة نظر كثير من النـــاس، المدركين للأمور ، الى هذه النكبة ، وعبّروا عن ذلك بمرارة وسخرية وألم .

أما الأول فقد كتب يقول :

« طلبنا العزّة بغير الإسلام .

« طلبنا العزّة بالـدم العربي ، والصمود العربي ، والقدرة الخلاّقة .

« طلبنا العزّة بحضـارة فرعون الغارقة في آلاف السنين التي سمّاها الرئيس المصري بحضارة ٧ آلاف سنة. وقال مرة : « إن مصر تحرّرت بعد ألفي سنة »،

---

(١) الاستاذ محمد الحسني ، رئيس تحرير مجلة البعث الإسلامي (العدد ٣ ، سنة ٩ ، أول أغسطس ١٩٦٧) .

وقـــال للمصريين المؤمنين : « إني خلقتُ فيكم العزّة والكرامة » .

«وطلبنا العزّة بالميثاق الوطني .

«وطلبنا العزة بالاشتراكيين الملحدين

«وطلبنا العزة بهيلاسيلاسي،ومكاريوس ، وتيتو . . .

«وطلبنـا العزة بالأسلحة المستوردة ، وبالبترول العربي ، وبالتأييد الدولي .

«واعتمدنا على ذلك اعتماداً كلياً . . .

«ولكنا طلبنا العزة بغير الله فأذلّنا الله . أذلّنا جواً وبحراً وبراً ، فـلم تقم لنجدتنا أيٌ من روسيا والحبشة ويوغوسلافيا وقبرص ، ولم تنفعنا سياستنا التي « كانت « تتجه إليها أنظار العالم » وقوميتنا التي بهرت أبصار العرب » ! اهـ

وأمـــا الشاعر ، فهـو الاستاذ الصـافي النجفي الذي قال :

محمـدٌ ! هلْ لهذا جئتَ تسعى

وهل لـك ينتمي هَمَلٌ مشاعُ

أيشغَلُهم عـــن الجُلّى نزاعٌ
هــاذا نَزْعُ موتٍ لا نِزَاعُ
أإسلامٌ ويغلبُهم يهـــودٌ
وآسادٌ وتغلبُهم ضبـــاعُ !
بنيتَ لهـم سبيـلَ المجـدِ لكن
أضاعوا مجدَكَ السّامي فضاعُوا

* *

فيا أيّها العربي ، عد الى إيمانك أضمن لك النصر والتقدم .

فمن ذا يفوقك بالمجـد ، أو يضارعك في القـوة والسلطان ، إذا خفق بقلبك الإيمانُ الصحيح بالله ؟

الفصل الثاني

محنة الاشتراكيات الثوريّة

ابتلي الشرق العربي بوباء عقائدي خطير اسمه « الاشتراكية الثورية » ، كان أعظم فتكاً من أخبث الأمراض الفتاكة ، فكأنه الكوليرا أو الطاعون . ورغم أن هذا الوباء العقائدي لم يمض على انتشاره عشر سنوات إلاّ أنه أخّر الشرق العربي ، في تقدمه ، نصف قرن الى الوراء ، بما أشاعه من التفرقة والتناحر والاضطراب . وكان ظهوره في سورية ومصر قبل البلدان العربية الأخرى .

فلننظر كيف دخل هذا الوباء الى شرقنا .

يذكر المؤرخ برنارد لويس[1] أنّ نجاح حزب العمال البريطاني في سنة ١٩٤٥ في الانتخابات البريطانية

(١) الغرب والشرق الأوسط ص ٩٦ / ٩٧ .

ـ وهو حزب يدين بالاشتراكية الفابية ـ جعل الناس في الشرق الأوسط يعتقدون أن الاشتراكية شيء جيد ، وأنها العلاج للمشاكل الاقتصادية في الشرق . فظهرت مجموعة من الأحزاب الاشتراكية كان أهمّها، في رأيه ، الحزب العربي الاشتراكي الذي أسّسه أكرم الحوراني سنة ١٩٥٠ ، ثم توحّد مع حزب ميشيل عفلق « البعث العربي » ، وسُمي باسم « حزب البعث العربي الاشتراكي » . ووصف لويس هذا الحزب الجديد فقال: مزج هذا الحزب فكرة اشتراكية بفكرة قومية غامضة .

وكان أكرم الحوراني قد بدأ حياته محامياً ، وكان ميّالاً الى الحزب القومي السوري ، ولم يؤت علماً بالتيارات الفكرية الأوروبية المعاصرة . وانتخب نائباً عن حماة ، وهي مدينة كان يسيطر عليها الارستوقراطيون . وقد اتخذ فكرةَ الاشتراكية لتحطيم هؤلاء البورجوازيين في بلده ، والبورجوازيين السياسيّين السوريين، من الحزب الوطني خاصة، الذين كانت بأيديهم مقاليد الحكم .

أما عفلق فقد كان يسارياً عندما عاد من فرنسة يحمل الليسانس في التاريخ ، وكان يكتب في مجلة الطليعة الشيوعية الدمشقية ، ثم عين استاذاً للتاريخ في ثانوية دمشق الأولى « عنبر » ، وتحول من الشيوعية الى القومية العربية وراح يدعو لها ، ثم عاد اشتراكياً غامضاً ، ثم ظهر أنه اشتراكي ماركسي كما تدل كتاباته في كتابه « في سبيل البعث » . وانضم إليه رفيق له ساعده في اتجاهاته ، وألف معه حزب البعث ، هو صلاح البيطار . وهو من أسرة مغربية الأصل ، ليست دمشقية ، وقد نشأ في بيئة دينية فقيرة .

أخذ عفلق يدعو ، بادئ الأمر ، للقومية، ويحارب الدين باسمها خفية، بين تلاميذه أولاً. وتعمّد أن يوصل دعوته الى أبناء الريف والقرى الذين لا يملكون ثقافة دينية متينة ، ولا معرفة بماضي العرب وروح الإسلام. وهؤلاء كان يسهل التأثير فيهم . وتعمّد أيضاً أن ينشر دعوته هذه بين أبناء الطوائف الدينية غير

السنّية ، كالاسماعيليين والدروز ، والنصيرية الذين سمّوا أيام الانتداب الفرنسي بالعلويين .

وكذلك اهتم بإيصال دعوته الى ابناء البلاد العربية الذين كانوا يؤمّون دمشق للدراسة فيها، من ابناء العراق والاردن . أما ابناء المدن والأسر العريقة في ماضيها فالذين دخلوا في حزبه قلائل . لكنه استطاع أن يؤثر في التلاميذ الذين نشأوا في بيئة دينية قاسية، وكانوا ينفرون منها . ونجح الى حدّ محدود . ويكفي أن نذكر مثلاً أن اثنين من ابناء مفتي دمشق يومئذ ، وكان من أكبر علماء دمشق وأكثرهم تقوى ، دخلا في حزب البعث في الأربعينيّات .

والذين عاصروا فكرة الدعوة للبعث من قبل عفلق والبيطار ، ثم ظهور حزب البعث العربي الاشتراكي ، يعرفون أن الدافع للاشتراكية عندهم كان أقرب أن يكون نتيجة لعقد نفسيّة منه الى حل للمشكلات الاقتصادية . وكانت هذه العقد مختلفة ، بعضها يهدف الى

الوصول لرئاسة الجمهورية ، وتحطيم الحزب الوطني ، أو الوصول الى الوزارة والنيابة ، وبعضها يهدف الى هدم الدين والتحرر من سلطان البيئة المسلمة . وظلّت هذه الشهوة الى المنصب تتأجج عند بعضهم، كالبيطار، بشكل ظاهر عنيف ، حتى الآن .

راح حزب البعث ، بدعوته الى القومية ، ينتشر بين التلاميذ وبعض المثقفين . وكانت الدعوة الى القومية رائجة ، لأنها كانت تلفُّ كثيراً من الأحلام والآمال . وعندما انقلب حزب البعث الى حزب اشتراكي مع الحوراني كانت مبادئه مزيجاً غامضاً من القومية والاشتراكية غير واضح المعالم . وكما تعمّد عفلق أن تكون دعوته لأبناء الريف والقرى والبلدان العربية البعيدة،عمد أكرم الحوراني بصلاته مع رجال الجيش،في العهود الماضية، الى إبعاد أبناء المدن وأبناء الأسر العريقة عن المدرسة الحربية، عندالانتساب اليها ليكونوا ضباطاً. وشجع دخولَ أبناء القرى والأرياف ، وأبناء الطوائف

غير السنّية من أتباعه. حتى كثَر هؤلاء فيه، وضعف أثر أبناء المدن . ولعل الحوراني كان يهدف الى جعل الجيش الجديد سنداً له في بلوغ ما يريد . وقد كان للحوراني في جميع الانقلابات العسكرية التي وقعت في سورية إصبع أو أثر فعّال . عدا انقلاب ٢٨ ايلول ١٩٦١ ، ومع ذلك فقد وقّع البيان الذي أعدّه رجال السياسة السوريون يومئذ بتأييد الانفصال، وشنّ أيام الانفصال حرباً شعواء، هو وجماعته، على الرئيس المصري عبد الناصر .

كانت فكرة القومية أملاً للخلاص من الفرنسيين والانكليز ، وتحقيق الوحدة العربية الكبرى . وجاءت فكرة الاشتراكية ومحاربتها الأرستوقراطية السياسية، تفتح الأمل للكثيرين من المثقفين والمستوزرين والطامعين في المناصب أو الثراء، أو في منافع أخرى يُرتجى نوالها . ولم تكن الدعوتان مدعومتين بنظامين واضحين . كما أنهما لم تكونا تحقيقاً لرغبة الجماهير كلها في البلاد . لأن الكثيرين كانوا يناوئون القومية ، لأنها ضد الدين أو

تبتعد عن الدين . وقد ذكر مورو برجر أن مما دعا إلى تخفيف قيمة الفكرة القومية أن المسيحيين كانوا من قادتها الأقوياء[1] . كما أن الاشتراكية لم تأت انتصاراً لنجاح الطبقة العاملة ، كما حدث في بلدان اشتراكية أخرى .

وأما في مصر فقد ظلّت الاشتراكية فكرة دعا اليها بعض الكتاب مثل شبلي شمّيل وسلامة موسى . ومثل هذه الأفكار كانت بعيدة عن البيئة المصرية المتمسكة بالدين . وعندما جاءت ثورة يوليو ١٩٥٢ ــ بعلم من أمريكا ورضائها ــ ظلّ حكّام مصر يتأرجحون بين الفرعونية والافريقية والإسلامية ، وهذا الاضطراب واضح في « فلسفة الثورة » ثم دعا حكامُ القاهرة الى القومية العربية بعد حرب السويس ١٩٥٧ ، لا عن ايمان منهم ومن الشعب المصري بالقومية ، بل لكسب سياسي أراد به الرئيس عبد الناصر جذب العرب اليه ، رغم ابتعاد المصريين حتى ذلك التاريخ عن العروبة والقومية

---

(١) العالم العربي اليوم ص ٢٢٦ من الترجمة العربية .

وتعلقهم بالدين الإسلامي وحده . وقد كان الرئيس عبد الناصر يخلط بين القومية والدين في خطبه ، ففي ٢٣ ديسمبر ١٩٥٩ خطب في بور سعيد وقال :

« انتصار القومية العربية يعني نهاية النفوذ الأجنبي وبداية الاستقلال ، وقيام دولة عظمى في هذا الجزء من العالم تعيد أيام صلاح الدين المجيدة، تلك الأيام التي وحّدت فيها القومية العربَ في كل مكان » .

والذين يعرفون التاريخ يدركون أن الذي وحّد العرب يومئذ وجعلهم ينتصرون هو «الإسلامية»، ليس القومية العربية. كان صلاح الدين كردياً مسلماً، وكانت جيوشه من التركمان والعرب والأكراد المسلمين جميعاً .

وجاءت قوانين عام ١٩٦١ الاشتراكية بالمصادرة والتأميم ، فكانت خطاً فاصلاً بين دعوات متذبذبة نحو اتجاهات مختلفة ، وبين دعوة واضحة تستمد خطوطها من الاشتراكية الثورية الماركسية وحدها. وظهر الميثاق المصري ، وهو مقتبس بنصوصه وروحه عن البيان

الشيوعي ومباديء ماركس . وظهرت مسمّيات مختلفة لهذه الماركسية العربية ، فسميت بالإشتراكية المصرية ، وبالإشتراكية العربية . وحاول بعض الكتاب إيجاد جذور لهذه الإشتراكية الماركسية في التاريخ العربي أولاً ، ثم في الدين الإسلامي نفسه . وفُرض النظام الاشتراكي بالقوّة من فوق . وأصبحت القاهرة مركزاً تعتمد عليه موسكو لنشر الإشتراكية الثورية في افريقية والشرق العربي .

وأخذ حزب البعث الإشتراكي في سورية بعد استيلائه على السلطة بالقوة، يتسابق مع الرئيس عبدالناصر في الإشتراكية. وكان الناس يظنّون أنّ حزب البعث لا يلجأ الى ما يلجأ اليه العسكريون، وأنه حزب يقوم على عقيدة وثقافة وإقناع . لكن عفلق والبيطار ، وهما اللذان كانا يندّدان بالقوة وتدخل الجيش في الحكم أيام حسني الزعيم ، لم يتورّعا أن يدفعا البعث في العراق للاستيلاء على السلطة بالقوّة، ثم لم يتورعا عن اللجوء الى انقلاب عسكري دام في دمشق للاستيلاء على الحكم في ٨

آذار ١٩٦٤ . فداسا جميع القيم الأخلاقية والثقافية التي كانا يرددانها في محاربة الانقلابات . وزعمـا أنه لا بد من الاستيلاء على السلطة لتطبيق برنامج الحزب .

ولم يلبث حزب البعث أن انحرف عن الدعوة القومية الصارخة الى الدعوة الإشتراكية الماركسية الواضحة ، وإن كان غلّفها بغطـاء رقيق من القومية والوطنية . لكن عفلق والبيطار ، فشلا أعظم فشل ، لقيه مؤسسا حزب ، وكانت نهايتهما مخزية لهما وللحزب ايضاً . فقد ضاعت الجهود التي بذلاها في نشر مبادىء البعث ، وذابت كالملح في الماء ، وكالثلج تحت الشمس . واتهمهما أتباعهما البعثيون بالرجعية والعمالة للاستعمار والبورجوازية ، تماماً كما كانا يتّهمان همـا رجال السياسة السابقين ، وكما كان يعلّمان الاتباع أن يتّهموا رجالات البلاد . وردّ مَنْ بقي معهما على أولئك بنفس التهم ، وصار حزب البعث الاشتراكي في نظر اعضائه، بعضهم لبعض ، حزب عمالة ورجعية واستعمار .

*

ولننظر الآن ماذا ألحقت هذه الاشتراكيات الثورية بالأمة العربية عامة ، والبلدان التي طبقت فيها خاصّة، من الأضرار .

إذا قلنا إنّ هدف هذه الثوريّات كان الهدم، قبل كل شيء ، لم نكن مخطئين .

١ً ـ فقد هدمت طاقات الشعب المادّية بالتأميم والمصادرة ، وتقييد حرية الصناعة والتجارة . فأفقرت الأغنياء ، ولم ترفع مستوى الفقراء . وعمّمت الفقر والخراب . ولم تستطع حل المشكلات الاقتصادية ، ولم توّفر الرخاء والرفاهية للشعوب ، كما كانت تزعم . لقد أخطأ هؤلاء الإشتراكيون الثوريون باختيار الطفرة والثورة لإصلاح البلاد . والطفرة لا تصلح لكل بلد . وليست الإشتراكية تصلح في بلاد كان يمكن أن يسود فيها نظام اجتماعي اقتصادي سياسي كامل منهله الإسلام، من الممكن توضيحه وإصلاحه وتجديده ، ليعود فيضمن للشرق العربي الرخاء والاستقرار والتقدّم العامي

والعزّة . وقد فشلت الإشتراكيات الثورية في كل بلد طبقت فيها . وها هي روسية الشيوعية نفسها ، ما زالت تئنّ من الجوع ، بعد نصف قرن ، حتى أخذت تتراجع عن مبادىء ماركس ، وتطوّرها بتفسيرها تفسيراً بورجوازياً ، كل هذا رغم ما عندها من طاقات بشرية واقتصادية . أما البلدان التوابع لها في الشرق العربي ، فأصبحت ترزح تحت الديون ، وانعدمت المحاصيل الزراعية فيها بسبب سوء السياسة الاقتصادية ، والاستيلاء على الأراضي . وصارت لا تجد القمح ولا الشعير، ومن بلادها كان يصدّر القمح والشعير والحبوب الأخرى. وهذا ما حدث في سورية والعراق ومصر. فقد صارت تطلب القمح من البلدان الأجنبية . وصار شعار الحكّام الإشتراكيين أن يطلبوا من الشعب ربط الزنار على البطن ، أو أكل « المكرونا » بدلاً من الأرز ، لأن الأرز يصدّر لتسديد الديون. فكأن ما تنبتُه أرض العرب صار محرّماً عليهم ، حلالاً على الروس . وصارت المواد الغذائية تؤخذ بالبطاقات لقلّتها ، على ما يجري في

سورية . وكانت هذه البلدان ، سورية ومصر والعراق ، قبل الإشتراكية الثورية ، تفيض بالخيرات . يجد فيها كل انسان طعامه وغذاءه ، ولو كان فولاً وطعميّة . ولكن حتى الفول قلّ ، وحتى الطعمية طارت .

اذن لقد أوصلتنا هذه الإشتراكيات الى الفقر ، والى الضعف المادي . فكيف نتغلب على الأعداء ونحن فقراء ، جائعون ، مُعْدَمون ؟

كيف نتغلَّب على الأَعداء ، وليس في الأُمة الا مَنْ نكبه الحكّام بماله ورزقه ، وملأوا نفسه حقداً عليهم ؟

أنقاتل ونتقدّم ونتحرّر بالمِعَدِ الخاوية، والنفوس المغيظة الحاقدة ، والآلام النفسية المتأججة ؟

٢ً ـ وهدمت هذه الاشتراكيات طاقات الأُمة الروحية بدعوتها ، سواء في سورية أو مصر ، الى الاشتراكية القائمة في جوهرها على مبادىء لا تعترف بالدين ، بل تحارب الدين وتحاول القضاء عليه ، ولا

تعترف بوجود إله. وقد كان التطبيق الاشتراكي العقائدي في مصر نشيطاً ، وحاولت هـــذه الإشتراكية بلشفة الإسلام، أي صبغه بصبغة ماركسية ، وتفسيره تفسيراً اشتراكياً ماركسياً ، لتضلّل العامة، وترغبها في الدخول في المذهب الجديد . وقد ظهر في صحف القـــاهرة من التهجم على الدين والاستهزاء برجاله اشياء كثيرة ، كما أن الحكام لم يتأخروا عن مهاجمة رجـال الدين واتهامهم بالرشوة بفرخة لأنهم عارضوا القوانين الاشتراكية . وكانت الاشتراكية في سورية أكثر جرأة في التهجم على الدين ، والتطاول على أماكنه ومقدّساته ، وتراثه .

ولأول مرّة في التاريخ الإسلامي ، بعد غزو التتار وغزوة تيمورلنك ، نجد المساجد الإسلامية في سورية إبان عهد عفلق والبيطار والحـــافظ تتعرّض للهدم والضرب بالقنابل . فقد هُتكت حرمتُها ، ولطّخت قداستها ، في دمشق وفي حمـــاة . واقتحمها الجنود بأحذيتهم ، وقُتل المصلّون في الحرم ، ولُطِّختْ أرضُها

وجدرانها بالدماء البريئة . وردّد هؤلاء الاشتراكيون أن المؤمنين المتمسكين بالدين هم رجعيّون ، وعملاء استعمار ، ينفذون المؤامرات الاستعمارية والامبريالية .

ولم تكتف الاشتراكية السورية بما فعلت في أيام عفلق والبيطار، بل زادت تهجّماً على الدين بعد ذهابهما. فقد كتب أحد العسكريين، وهو ابراهيم خلاص ، في مجلة « جيش الشعب » السورية مقالاً في ابريل ١٩٦٧ أوضح فيه رأي هؤلاء الاشتراكيين الثوريين الحاكمين في الدين . فكان مما قاله :

« استنجدت أمة العرب بالإله ، فتشت عن القيم القديمة في الإسلام والمسيحيّة ، استعانت بالنظام الإقطاعي والرأسمالي وبعض النظم المعروفة في العصور الوسطى ، كل ذلك لم يُجْدِ فتيلاً ... مع كل هذا شمّرت أمة العرب عن ساعديها ونظرت بعيداً ، بعيداً ، لترى طفلها الوليد يقترب منها شيئاً فشيئاً . وهذا الوليد ليس إلا الانسان العربي الاشتراكي الجديد » .

« الانسان المتحرّر على جميع القيم المريضة الهزيلة في مجتمعه التي هي ليست إلا وليدة الإقطاع والرأسمال والإستعمار . تلك القيَم التي جعلت من الإنسان العربي إنساناً متخاذلاً متواكلاً ، انساناً جبرياً ، مستسلماً للقدر ، إنساناً لا يعرف إلاَّ أن يقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » .

« . . . والطريق الوحيدة لتشييد حضارة العرب وبناء المجتمع العربي هي خلق الإنسان الإشتراكي العربي الجديد الذي يؤمن أن الله والأديان والإقطاع والرأسمال والمتخمين ، وكل القيم التي سادت المجتمع السابق ليست إلا دمى محنطة في متاحف التاريخ ... »

« ... ونحن اذ نشترط في انساننا الجديد رفضه للقيَم السابقة ، علينا أن نضع قيَماً جديدة محدودة ، ليست هناك سوى قيمة واحدة : وهي الإيمان المطلق بالإنسان القدري الجديد ، الإنسان الذي لا يعتمد إلا على نفسه وعمله وما يقدمه للبشرية جمعاء ، لأنه يعلم أن

نهايته الحتمية الموت ، وليس غير الموت . لن يكون هناك نعيم أو جحيم ، بل سيصبح ذرة تدور مع دوران الأرض ، لذلك هو مضطر الى أن يقدم كل ما يملك لأمته ولإنسانيته دون ما مقابل (كزاوية صغيرة في الجنة مثلاً)[١] .

فهذا المقال المنشور في مجلة رسميّة فيه من التهجم على الدين أكثر مما يمكن أن يكون ، وخاصة في بلد إسلامي عريق كدمشق . وقد أثار المقال غضبة الجماهير الدمشقية المؤمنة ، وغضبة علماء الدين. فحاول الحكّام التملّص من المقال والكاتب ، وعمدوا الى ملء السجون بالعلماء وأهل الإيمان ، وافتعلوا الخطر الصهيوني الأجنبي ، لإطفاء الفتنة العارمة . وهذا تكتيك شيوعي . فعندما يقوم خطر داخلي ، يُفتعل الخطر الخارجي ، للقضاء على الأول . لكن الخطر الخارجي تحقّق . ولم يمض على ذلك المقال شهر حتى كانت الأزمة

(١) جيش الشعب العدد ٧٩٤ (٢٥ نيسان ١٩٦٧) ، وجريدة الحياة . (٥ أيار ١٩٦٧) .

والهزيمة . ولم ينفع الاشتراكيون في دمشق اشتراكيتَهم الجديدة ، ولا الإنسان العربي الاشتراكي الجديد ، الذي لا يؤمن بالقيَم والأخلاق والدين . وصدق الله إذ قال (أُولئك لم يؤمنوا . فأحبط الله أعمالهم ، وكان ذلك على الله يسيرا) .

٣ً ـ هدمت هذه الاشتراكيات القيم الاخلاقية المتوراثة ، وأوجدت مدرسة لا أخلاقية قوامها الكذب المرّ ،والشتم، والتشهير، والافتراء، والطعن بالأعراض، والتشكيك بكل شيء . وقد تفنّنت في هـذه الأمور حتى بلغت فيه حداً رفيعاً . وصنّفت الناس الى عملاء وأذناب ورجعيين ، وتقدميين وتحرر ّيين. وقام صوت العرب ، ليشيد مدرسة خاصة في السب والشتم والعهر اللاأخلاقي ، أصبحت من خصائص الاشتراكيّة الثورية العربية . فلن تذكر بعد اليوم هذه الاشتراكيّة ، إلاَّ و يُذكر معها مدرسة أحمد سعيد القذرة النتنة.ولم يقف ذلك على صوت العرب ، بل نهجت الصحف الناصرية

النهج نفسه ، لتشتم كل من يُعارض الاشتراكية المصرية أو يندّد بمساوئها . وقد وصف العالم المصري الفقيه الاستاذ محمد أبو زهرة هؤلاء الكتّاب المرتزقين النبّاحين فقال :

« تحركهم نفوس مائعة ، وعقول غير منضبطة ، ولكنْ معهم ألسنة قوية . وقد كان أخشى ما يخشاه محمد ﷺ أن يكون فيهم رجل عليم اللسان منافق القلب ... » .

« ... وإن من أوضح صفاتهم الفجور في الخصومة، وهي احدى خصال النفاق ، فقد ذكر النبي ﷺ أن آية المنافق أربع: إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان ، وإذا خاصم فجر » .

« وإن هذه الصفات الأربع فيهم ، فهم كذّابون ، خائنون للعهود ، لا يؤتمنون على أمانة ، ويفجرون عند المخالفة . وأول ما يظهر من فجورهم في المخالفة أنهم لا يُناقشون الآراء التي يخالفونها ، ولا يدفعون الحجة

بالحجة، والدليل بالدليل، بل يندفعون في القائل، ينالون من شخصه ، من غير ملاحظة لموضوع القول ، ومكانه من الصدق. فكأنما المخالفة إثارة لنفوسهم، وإيقاظ لكامن أحقادهم على الفضيلة والفضلاء » .

« ومع هذه النفس المنفلتة في تفكيرها فقدٌ للحياء ، الذي هو خلق المجتمعات الكريمة . وقال النبيّ ﷺ : « لكل دين خلق ، وخُلق الاسلام الحياء » . لكنه عليه السلام قرّر أنه إذا فقد امرؤ الحياء فلا خيرَ فيه ، ويستبيح كل شيء . قال عليه السلام : إن مما توارثه الناسُ من كلام النبوّة الأولى : اذا لم تستح فاصنع ما شئت .

ثم أضاف الاستاذ أبو زهرة فكأن ما قاله نبؤة بما وقع بعد : « إن هؤلاء اذا شاعت نزعاتهم، وسرت الى قلوب الشباب أهواؤهم، وسيطروا على الجو الفكري، مع إصغـــاء الناس لهم ، وتأثرهم بهم ، فبشِّر أمتهم بالضياع ، وقوّتها بالانهيار ، فإن الأمم لا تقوم ويستقيم

أمرها إلاّ بقلوب مؤمنة ، وأشخاص يؤثرون على أنفسهم . وهؤلاء قد اتصفوا بالأثرة والأنانية ، ولم يعرفوا الايثار حتى لذويهم ... وبين أيدينا فرنسة في سنة ١٩٤١ ، فقد انهارت قواعدها عند أول ضربة وجهها المحاربون لها ، وخرّت صريعة تحت سنابك خيل أعدائها الذين حاربوها »[١] .

لقد ظهرت هذه المقالة قبل النكبة بخمسة أيام ، فتحقّق ما قاله الكاتب ، وضاعت مصر الاشتراكية أمام العدو ، في أقل من ساعة ، وانهارت كما انهارت فرنسة ، وكانت لا أخلاقية الاشتراكية الثورية ، وعدم إيمانها بالله وما ينتج عنه ، هي التي حاربت مع الأعداء .

وقد أثّرت لا أخلاقية الاشتراكيات الثورية في كثير من العامة والرعاع ، والمشوّهي الثقافة ، والضعاف القلوب والعقول ، والشباب الثائر الحاقد . فأخذوا

---

(١) محمد أبو زهرة ، مجلة لواء الاسلام ، يونيه ١٩٦٧ .

يردّدون الشتائم التي يسمعونها من صوت العرب ، أو من الصحف الناصرية والبعثية كالببغاوات ، دون نقد لها .

وشجّعت هذه الاشتراكيات على القتل والاغتيال ، فاغتالت الأقـلام التي كانت تحذّر العرب من أخطار الاشتراكية الثورية، وتوضح لهم طريق الخير الذي يجب أن يتبعوه . وكان اغتيال صاحب جريدة الحياة الشهيد كامل مروة في مكتبه في أيار عام ١٩٦٦ ، أكبر فضيحة ارتكبتها الاشتراكية الثورية . وشجعت أيضاً أعمال الارهاب ، من القاءِ القنابل والتهديد والضرب ، وبذلت جهوداً مخيفـة في التجسّس على البلاد العربية وأبنائها، بدلاً من صرف جهودها للتجسّس على العدو .

فهذه أُمور كلها هدَّامة للخلق العربي الأصيل ، والخلق الإسلامي النبيل ، والأخلاق الحضارية الرفيعة . فليس في الإسلام ولا المسيحية ولا الحضـارة الغربية تشجيعٌ وتمجيد للكذب والإفتراء ، والدس والنميمة ، ونشر العداوة والبغضاء ، وليس فيها موضع للجريمة

والاغتيال ، ولكن هذه الأمور كلّها هي من صلب العقيدة الشيوعية الماركسية التي ترى أن الدين والأخلاق والتقاليد واجهات بورجوازية يجب هدمها والقضاء عليها.

ان الأخلاق في الاسلام أمرٌ أساسيٌ لا يتم هناء الفرد ، ولا تقدم الانسانية إلا بها . لأنها ميزان للحق وللخير ، ولأنها أساس لقوة المجتمع الاسلامي ، وقد أتى بها القرآن والسنة أخلاقاً عملية تطبيقية ، لا نظرية حسب .

والى جانب ذلك شجّعت هذه الاشتراكياتُ الإباحيةَ والمجون لإلهاء الناس عن عيوب الحكم القائم ، أو لهدم التقاليد المتوارثة التي يأمر بها الدين ، وتقوم حاجزاً ضد استتباب الحاكمين . والمتتبع لصحف القاهرة ومجلاتها يجد من التشويق الى الاباحة والمجون مادة تؤلف كتاباً . وقد نشرت جريدة الجمهورية القاهرية أن عدد الشقق التي تستعمل للأعمال المنافية للأخلاق قد زاد في القاهرة ارتفاعاً مذهلاً ، وأن أكثر من ألفي شكوى قدمت بهذا الشأن . (الجمهورية ـ اكتوبر ١٩٦٧) .

أفليست هذه اللاأخلاقية ـ وقوامها الفساد والإفساد ـ هي التي دفعتنا الى الهاوية ، وجعلت العدو ينتصر؟ أبهذه الأعمال المضرة للنفس وللبشرية يكون النصر ؟

« ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض . ولكن كذّبوا ، فأخذناهم بما كانوا يكسبون » .

٤ً ــ هدمت هذه الاشتراكيات أقدس ما ناضلت من أجله الانسانية منذ فجر التاريخ ، ألا وهو الحرية . فقد قتلت الحرّيات العامة في البلاد : حرية الرأي ، وحرية التعبير والكلام ، وحرية التنقّل ، وغير ذلك. فأمّمت الصحف ، وأصدرت صحفاً تنطق باسمها وحدها ، واختارت الكتّاب ممن ينفخون بأبواقها ، ومنعت نقد ما تنشره الصحف ، وبيان ما فيها من أراجيف وأباطيل ، وكمّت الأفواه فلا يستطيع إنسان أن يتكلّم خوفاً من العذاب . وإلا كان السجن مأواه ، والعذاب المنوّع نصيبه . وعندما تمّ لها الأمر داخل

بلادها ، حاولت شراء صحف في البلاد الحرّة ، لتدعو لنظامها بالمال، لا بالإقناع. وهددت من يناوئها بالقتل ، واغتالت فعلاً من ناوأها وأبان تضليلها . فالحرية الفكرية مكبوتة مقتولة ، والرأي الحرّ موءود . وقد اتبعت هذه الاشتراكيّات في ذلك طريق الاتحاد السوفياتي وتيتو ، حيث يحاكم الأدباء وأهل الرأي والفكر لأنهم انتقدوا النظام أو أبانوا عن زيف الحكم .

كل ذلك لأن هذه الاشتراكيات لاتؤمن بحرية الفكر ، ولا تجادل في الرأي ، ولا تقدّم الحجة لتقرع الحجة ، شأن المتحضّرين ، بل تودّ فرض أرائها وأفكارها وحدها بالقوة والإرهاب .

وقُيّد سفر المواطنين الى الخارج في سورية ومصر والعراق ، لقد أقيم ستار حديدي على الناس .

ومُنعت المعارضة السياسية ، فلا أحزابَ إلا الحزب الحاكم ، ومن يُعارضْ يسجن أو يُقتل ، ويقولون إنه انتحر .

فكيف نتغلب على أعدائنا والحريات مفقودة ؟

كيف يمكن تقويم الخطأ إذا كان أهلُ الرأي لا يستطيعون النقد ولا الكلام ؟

ألا سقا الله تلك الأيام التي كان الفردُ فيها يقولُ للحاكم : والله لو أخطأتَ لقوّمناك بسيوفنا !

وإن المجتمع الذي تُسلب حريته ، يتخلّى عن أصحاب الحكم في ساعات الشدة والحرج ، ولا يقدّم لهم المساعدة . ويقف منهم موقفاً سلبياً عدائياً ، بل قد تبلغ به الأماني في ساعات اليأس أن يتمنى زوالهم على أيدي أيّ كان ، ثم لا يبذل في سبيلهم شيئاً .

إن البذل بالمال والأرواح لا يكون إلا في ظل الحرية، وفي ظل الحب والودّ بين الحاكم والمحكوم .

٥ً ـ هدمت هذه الاشتراكيات الطاقات الفنية والعلمية للأمة العربية، بتشريد أصحابها، وهم المختصون بمختلف العلوم والفنون ، الذين انفقت عليهم دُوَلهم أو

أهلوهم آلافاً وآلافاً من الليرات والجنيهات. وقد رفضت هذه الاشتراكيات التعاون معهم ، أو أزعجتهم وقيّدت حرياتهم ، فآثروا الفرار من حكم لا يُقدّرُ الكفاءة ، ولا يحترم العلم . وهكذا أصبحت سورية على الأخصّ فقيرة في الاختصاصيين ، يخيم عليها الجهل ، وتُساس بالجهل.

وتزعم هذه الاشتراكيات أن العقائدية هي الأساس في التعاون مع الحكم . فمن لم يكن بعثياً ريفياً قروياً في سورية فلا يمكنه أن يسهم في أعمال الدولة . وكذا من لم يكن ناصرياً أو من الاتحاد الاشتراكي في مصر .

إن الحكم الدكتاتوري الذي تقوم عليه هذه الاشتراكيات لا يعتمد على الكفاءات والقيم. لأن أصحاب الكفاءات لايستطيعون محو شخصياتهم أمام أناس يحكمون بالقوّة .

والحكم الدكتاتوري من هذا النوع الثوري البدائي يعتمد على المرتزقة الذين يوالونه ، أكثر من اعتماده على المثقفين وأصحاب الكفاءات .

ولقد تقدّم كثيرون من ابناء الاختصاص العسكري اثناء النكبة الأخيرة يريدون الاسهام في القتال ضد العدو، فمنعوا من دخول البلاد، أو فرضت عليهم إقامة إجبارية في دورهم.

وقد نشرت الصحف أن بودغورني سأل بعض الحكام عن الطيّارين، الذين تدرّبوا في الاتحاد السوفياتي وتشيكوسلوفاكيا، لماذا لم يُشاركوا في القتال ضد العدو. فأجيب: إنهم أُبعدوا لأنهم غير عقائديين، فلا يوثق بهم. والمعروف في تاريخ الحروب أن القائد الكفؤ يجمع عند الخطر، طاقات الأمة كلّها على اختلاف أنواعها للحصول على النصر قبل كل شيء. فالنصر لا يأتي بعدم الاختصاص، ولا بزعيق المذيعين في الراديو، ولا بالأناشيد الحماسية.

ثم إن المبدأ الذي يتمسكون به: مَنْ ليس معنا فهو علينا، هو مبدأ لا إنساني، ولا يليق بالتقدمية.

فسبيل الانسانية المتقدمة هو الحرية والإخاء والمساواة والحب.

فلا غرابة إذن إذا فاز العدو ، وقد جمع الكفاءات الفنية من كل نوع ومن كل مكان . في حين ان الاختصاصيين العرب مبعدون عن أعمالهم ، في كل ناحية وميدان . وقد اعترفت الاشتراكيات الثورية نفسها ان نقصان الكفاءات العسكرية كانت من أسباب النكسة . لأنها أدت الى فساد الخطط التي وُضعت لصدّ مهاجمة العدو .

ومن ناحية أخرى فإن هناك مئات من الطاقات العلمية التي أوفدتها الدول الاشتراكية للبحث والتخصص ترفض العودة الى الوطن ، فراراً من وضع الزنانير على البطن، والجوع والفقر ، وفقدان الحرية .

وقد كتبت جريدة الجمهورية يوم الجمعة ١١ أغسطس ص ٣ مقالاً بعنوان « كيف تسرق أمريكا علماءنا » ؟ فذكرت أن في أمريكا ٢٠٧ مبعوثاً مصرياً رفضوا العودة رغم انتهاء بعثاتهم ، وأن في دول أخرى يوجد ١٤٨ مبعوثاً رفضوا العودة نهائياً . وأن ٧٠ ٪ من

المقيمين في أمريكا تزوجوا بأمريكية . وتتوزع اختصاصات هؤلاء على الصناعات الهندسية ، والعلوم البيولوجية ، والاقتصاد ، والخدمات الطبية ، والعلوم الرياضية ، والتعدينية ، والكيماوية .

وأضافت الجريدة أنه في خلال العشر السنوات الماضية رحل الى أمريكا ٥٩ ٪ من العلماء المصريين والمبعوثين في بريطانيا ، وألمانيا ، وسويسرا . »

وطبقاً لقاعدة الغرور المنتشرة في الاشتراكيات الثورية سمّت الجريدة ذهاب هؤلاء الى أمريكا أو رفضهم العودة ، « سرقة تقوم بها أمريكا » .

والحقيقة أن هؤلاء أدركوا أنه لا عيش لهم بحرية في ظل الاشتراكيات الثورية ، وأدركوا ان العلم بلا حرية لا قيمة له . لذلك آثروا الحرية وآثروا الشبع .

فكيف ننتصر على العدو ونحن لا نحترم العلم ، ولا نحرصُ على العلماء ؟

٦ً ـ هدمت الاشتراكيات فكرة الوحدة بين ابناء الوطن الواحد ، وبين البلاد العربية كلّها .

آ ـ أما هدمُها فكرة الوحدة بين ابناء الوطن ، فباندفاعها في الدعوة الى الصراع الطبقي . لقد جزّأوا المجتمع الى اجزاء ، وملأوه بالضغائن والأحقاد ، وأصبح الابن عدواً لأبيه ، والبنت ثائرة على أمها ، والصغير عدواً للكبير ، والقرويّ عدواً للمدنيّ . حتى الصديق أصبح يريد أن يُجهز على صديقه . فهوى المجتمع الذي كان متماسكاً من قبل، وتفتّت وتجزّأ ، فأصبح لا خيرَ فيه . وإذ كان الاشتراكيون الثوريون قـلّة في هذا المجتمع ، فقد كان لا بُدّ أن يبتعد عنهم أبناء الوطن الآخرون ، وأن لا يتعاونوا معهم ، وأن يعمدوا إذا استطاعوا للقضاء عليهم،والالتجاء الى أي حركة أو إنسان للخلاص منهم، ولو كان الشيطان أو من هو أحقر منه .

ب ـ أما هدمها فكرة الوحدة بين البلاد العربية، فذلك لأن هذه الاشتراكيات كانت حائلاً دون وحدة العرب ، وكانت السدّ المانع دون تضامنهم وتعاونهم .

فقد هاجمت الدولَ العربية التي لم تنزلق في مهاوي الاشتراكية الثورية ، واتهمتها بالرجعية . وأبطل الرئيس عبد الناصر مؤتمرات القمة وقال إنه لا يجلس مع الرجعيين لأنهم خونة ، واستعاض عن وحدة العرب بوحدة الهدف الإشتراكي الذي يسعى اليه . وأعلن بومدين أنه يرفض أن يطأ الترابَ الجزائري بعضُ حكام العرب . كل ذلك نفّر الدولَ العربية غير الاشتراكية من أولئك الإشتراكيين الذين يريدون ان ينصبوا أنفسهم وُصاة على الأمة العربية ، دون سابق نضال ولا جهاد ، ودون علم وخبرة ومعرفة تشهد لهم بفضل وتقدم . وحاول بعض هوُلاء الاشتراكيين أن يمدّ سلطانه الى البلاد الأخرى « من المحيط الهادرِ ، الى الخليج الثائر ! » ، فهبّت الدول العربية تدافع عن نفسها من الخطر الداهم . وانزوت تردّ المكايد وتُبعد الدسائس ، تجاهر مرة ، وتصمت مرة، أو تفدي نفسها من الخطر والدعاية بالقروض والمال .

ولقد كانت الشتائم التي وُجهت الى الملوك

والرؤساء العرب من القاهرة ودمشق ، صفحة سوداء من صفحات تاريخنا الحديث . ولقد اصبحت معروفة، فلا حاجة الى اثباتها . حتى ملّها الناس لكثرة تكرارها .

رغم هذه الأخلاق الثورية المُنفِّرة التي ظهرت من هؤلاء الاشتراكيين، فقد قابلهم «الرجعيون» بكل نبل. لقد أرسل الملك الحسن وبورقيبه رسولين للرئيس المصري أثناء النكبة ، يعرضان عليه العون والنصح . وفي لندن صرّح الملك فيصل للصحفيين يوم ٦٧/٥/١٧ بحديث نشرته جريدة الحياة ، في ٦٧/٥/١٨ قال فيه :

« إن الجيش السوري في السابق يوم كان في أشد سطوته وجبروته ، أي قبل حوالي ١٢ او ١٤ سنة، ردَّ على اسرائيل بضربات قاضية ، أنزلت بها الخسائر الفادحة ، وألقت عليها درساً بليغاً في تفهّم وضعها ونظرة العرب اليه .

ودخل في اليقين يومها ، أن الجيش السوري وحده،

ومـــا بلغه من القوة ، قادر على ردّ الصاع صاعين لإسرائيل في أي مكان وزمان ، إلى أن خيَّب العهدُ الأخير أمل العرب ، وجعل إسرائيل « تتمرجل » بالشكل الذي قامت به في سماء دمشق ؟

وتساءل الملك فيصل بمرارة : ولنفترض أن عنصر المفاجأة لعب دوره . فأين سهر الجبهة ، وأين القيادة الموحدة ، بل أين الدفـــاع المشترك ، بل أين الاتفاق العسكري الثنائي ؟ ، وهل ينفذ مفعوله على حـدود سورية فحسب،أم انه يشمل سائر الجبهات عند الحاجة ؟ وهل كان على الطائرات المصرية أن تهبّ من مطاراتها الى مطارات سورية أم الى الجبهة القريبة منهـــا لتخفيف الضغط عن القوات السورية ؟

وتابع الملك ، فقال : واليوم ، والأنباء تتوالى عن توتر الموقف مجدداً ، فهـــل يرد العرب على اسرائيل بالإنقسامات العربية ، وحملة الإذاعـــات على العرب ،

وتشتيت شمل القوات العربية هنـا وهناك ... أفيكون عدو العرب ، هم العرب أنفسهم ؟

وكان قد وصل الى مسامع العاهل السعودي مـا أذاعته محطة اسرائيل عن حملات التشهير بين زعماء العرب ، مسجلة بأصواتهم ، نقـــلاً عن خطب او تصريحات لهم سابقة ، فردّد : يا للخجل ، ولا أقول يا للعار ، وانما نكاد ألا نجد تعبيراً لموقفٍ يندّد فيه عدوُّ العرب بانقسامات العرب ... (وأطرق يهـز رأسه أسفاً وعلامات التأثر بادية عليه) .

وقال الملك فيصل : انـ العرب اليوم ، دولاً وشعوباً ، بحاجة الى رصّ صفوفهم أكثر من أي وقت مضى ، شرط انـ يحصروا جهودهم وخطواتهم في الطريق الى وحدة الكلمة قبل فوات الوقت . وبلدنا (يقصد المملكة العربية السعودية) يضع حياته على كفه في أي وقت ، وفي أي زمن ، تجاوباً مع أي مطلب عربي ينقذ العرب من عدوهم ، ويرفـع من مستوى

شئوونهم وأمورهم الى المرتبات الدولية الخليقة بهم » .

وخص العاهل العربي لبنان ، بتحية خاصة . وقال إنه البلد العربي الأمين ، الذي يمكنه ان يلعب دوره التقليدي سواء أكان تحت سقف الجامعة أم على صعيد العلاقات العربية، كما يمكنه في أي وقت ان يدفع عنه شعارات الأذى ، ومبادىء الفوضى المستوردة ، شرط أن يجد من أبنائه تكاتفاً ، ومن أرائهم اتجاهاً موحداً ، ومن صفهم وحدة متماسكة . اذ ما من شيء أضرّه قبل تسع سنوات كما أضره وقتها انقسام بنيه ، كما ان ما من شيء أعزّه ورفع من شأنه كاتحاد ابنائه وتحسسهم معاً بأن الأرض أرضهم، وأن السماء التي تظلهم هي سماؤهم!»

وكان قد وصل الى الأمير سلطان وزير الدفـــاع السعودي والمرافق للملك ، بعض الأنباء عن الغارات التي تعرّضت لها نجران وجيزان أخيراً ، فعلّق على النبأ بقوله : ان منطقة نجران وجيزان «شبعت» قنابل وعرض عضلات،دون أن تتأثر من ذلك كله قلامة ظفر .

فحبذا لو أن هذه الطائرات تحولت الى الجبهة السورية لمساعدتها ضد إسرائيل ، او انها اخترقت سماء غزة الى حدود عدوّ العرب الأوحد ، تخفيفاً عن البلد السوري الشقيق » .

وأضاف الأمير السعودي فقال : وأعتقد ان المسافة الى غزة ، أو الى الجبهة السورية هي أقرب من المسافة الى نجران وجيزان » .

وذكرت صحيفة الندوة أن الملك فيصل أخطر الدول العربية اثناء زيارته لأوروبا في أيار أن اسرائيل تنوي القيام بهجوم على البلدان العربية المجاورة لها .

وقد نقل الملك هذا التحذير الى جميع الدول العربية بواسطة ممثليها الدبلوماسيين في لندن وبروكسل اثناء زيارته الرسمية لهما ، وأبلغهم ان على الدول العربية انْ تبدأ بالهجوم على اسرائيل وتمسك بزمام المبادرة لتفوّت على العدو فرصة المبادرة ، وليتمكن العرب من أن يحققوا نصراً ، أو على الأقل حتى لا يتحوّل الموقف الى نكبة ... (الحياة ٢٩/٦/١٩٦٧)

وصرّح الملك فيصل أيضاً عند عودته من أوربة فقال:

« إن عدم تحقيق التضامن العربي قبل الكارثة ، كان في طليعة أسباب الأزمة . وإن العرب لم يكونوا على كامل الاستعداد عندما واجهوا الأحداث الأخيرة .

(الحياة ٢ /٧/ ١٩٦٧)

كما أن الأمير خالد بن عبد العزيز وليّ عهد المملكة العربية كان أذاع من راديو مكة بياناً جاء فيه :

« إن اسرائيل ما كانت لتقدم في أيّ يوم من الأيام على مثل هذه المواقف الاستفزازية ، وتهديد أي بلد عربي لو كانت البلاد العربية متفقة »

(الحياة ١٩ /٥/ ١٩٦٧) .

* *

ثم وقعت الواقعة ، وجاءت النكبة .

وكانت الكسرة على الاشتراكيات الثورية ، وبحثوا عن الأصدقاء .

فتخلّى عنهم الأميركان والانكليز، ومَنْ يتبعهما من أمم الأرض .

وتخلّى عنهم الاتحاد السوفياتي وتوابعه ، وما حصل منه أي عون يقهر العدو .

ولم يجدوا بجانبهم إلاّ الدول العربية التي كانوا يهاجمونها ، والدول الاسلامية التي كانوا يحاربونها بالتهم .

وتبيّن أن الشعور العربي الأصيل ، هو نبيل في جذوره ، وأعماقه ، يتجاوز عن الاساءة لينقذ السمعة العربية ، ويمد يد المساعدة الى القرابة العربية .

وبعد أن كان الرئيس المصري يدعو الى نتف الذقون ، طلب المساعدةَ من أصحاب الذقون .

وتبين أن الشعور الديني ، هو أعمق وأقوى من كل شعور سطحي ظاهري ، يتلوّن به الناس لجلب المنافع ، في مدة قصيرة .

وتبين أن هوٴلاء الثوريين أخطأوا كل الخطأ عندما وجهّوا تخريبهم الى داخل الأمة العربية ، في حين أن العدو على بابهم يستعدّ ويتقوّى وينتظر .

وعندئذ أحسّت هذه الاشتراكيات الثورية بضعفها .

وانقلبت لهجة الصحف المصرية ، وصارت الدعوة الى موءتمر قمة جديد ، واضحة صارخة .

وقبل الرئيس المصري أن يجتمع مع الرجعيين في موءتمر الخرطوم .

وبعد أن كانت القاهرة لا تبالي بالخلافات بين الدول العربية ، نرى الأهرام تبدي رأيها يوم ٦٧/٩/٢ فتقول:

« لا شك أن نقطة الانطلاق في العمل العربي الموحد من أجل تصفية آثار العدوان هو أن نعيد تنظيم صفوفنا وندعم بناءنا القومي » .

« وفي هذا الاطار تعتبر تسوية الخلافات على المسألة اليمنية ... من أهم منجزات موءتمر القمة بالخرطوم ... »

ونجدهـــا في نفس العدد تشيد « بالوحدة التي لم تتيسّر من قبل للعرب » « وبالتضامن الذي حققه اتفاق مصر والسعودية » .

ونجد حسنين هيكل يشيد بموءتمر القمة في الخرطوم،

ويحاول تبرير اجتماع الرجعية مع الثورية !..

(الأهرام ٨/ ١١/ ١٩٦٧)

وهكذا عاد الاشتراكيون الى التضامن : وحدة صف موقتة لهدف موقت .

* *

ونعيد القول إن انقسام العرب كان سببه هذه الاشتراكيات .

وهذا الانقسام هو ما تسعى اليه اسرائيل .

ولا أدلّ على ذلك من تصريح لأبا إيبان وزير خارجية اسرائيل صرّح به في ديسمبر عام ١٩٦٦ لمجلة الحقيقة الفرنسية « ريالته » معدّداً العوامل التي تضمن أمل اسرائيل بالبقاء فقال :

« وأخيراً ، وخاصة ، استمرار الخلافات العربية ، لأنه لو اتحد العرب لما بقي أحدٌ يهتم بنا ، ويسهُل عليهم اذابة كياننا » .

قال هذا قبل سنة تقريباً ، لكنّ الاشتراكيات

الثورية تصامت عنه، ولم تضع حداً للانقسام . رغم أنها تعلم أن اسرائيل تعيش على الضعف العربي، وعلى الانقسام العربي . وكان هذا الانقسام عرقلة واضحة للوحدة العربية التي حلم بهـــا العرب منذ نصف قرن !..

* *

لكن الذي يدعو الى السخرية أكثر أن هـــذه الاشتراكيات الثورية نفسها لم تستطع أن تتّحد معاً . فكان الخصام والتحدّي قائماً بين سورية ومصر والعراق. ورغم جهود كوسيغين، وتيتو، في سبيل وحدة الهدف، والتقاء الثورات، فإن اذاعات دمشق والقاهرة سجّلت، في فترة ما، من الاتهامات والسباب والشتائم، كل منها لحكام الأخرى، ما لا يُصَدّق . فكل اشتراكية تزعم أنها هي الصادقة، وأن الأخرى انتهازية مغامرة، وكل اشتراكية تخاف أن تبتلعها الاشتراكية الأخرى .

وقد قامت ندوة من الاشتراكيين المثقفين في دمشق

بمناقشة أسباب النكسة فاعترف المشاركون بهـا « أن العوامل الذاتية (بين رؤساء الاشتراكيات الثورية) كانت وما تزال سبباً في انقسام الحركات الثورية العربية على نفسهـا . وأن جميـع هذه الاشتراكيات قد وقعت بأخطاء[(1)] . وظهرت العواملُ الذاتية ، تعني الأنانيات ، وحب الأثرة بالحكم ، والهيمنة والسلطان على سائر الاشتراكيات الأخرى .

واعترف أحد المناقشين أن الذي أبعد الوحدة بين هـذه الاشتراكيات هي الخلافات الذاتية . (ص ٧ من المصدر المذكور) وقال آخر إن السبب هو « التجزئة القومية التي كانت عاملاً سلبياً وساهمت الى حد كبير فيما لحق الامة العربية من الإهانة والنكسة » .

واعترف آخر أن انعدام الوحدة العربية عسكرياً هو الذي سبب النكبة (ص ١٠) وأن حروب ٤٨ و ٥٦

---

(١) أنظر مجلة « دراسات عربية » ندوة حول النكسة الاخيرة . عدد ١٢ تشرين اول ١٩٦٧ ، ص ١٠

و ٦٧ قد فشل العرب فيها لسبب واحد هو اللاوحدة (ص ١٣) وأن اتفاقيات الدفاع بين سورية ومصر ، ومصر والأردن لم تنفّذ فعلياً ، وأنهـا فشلت (ص ١٢٧) .

واعترف كاتب من اتباع الإشتراكيات الثورية بأن القوى العربية الثورية لم تلتق حتى الآن على خطة موحدة للعمل ... » (دراسات عربية ص ٢١) .

وان هناك انقساماً وتفتتاً فيما بينها ، كما أن بينها تناقضات أساسية .

بل هناك ما هو أعظم من هذا ، فالخلاف بـين رجال هذه الإشتراكيات في كل بلد قائم ، يأكل بعضهم بعضاً .

وعلى هذا نرى أن هذه الاشتراكيات ، باعتراف أتباعها ، لم تستطع أن تقيم وحدة بينها للأنانيات القائمة بين رؤسائها ، وأنها أخافت الدول الأخرى من الانضمام

اليها خوفاً أن يلحق بها الدمار والخراب . اذن كانت هذه الإشتراكيـــات عائقاً دون وحدة العرب ، بل كانت سبباً للتقسيم والتجزئة داخل الوطن الواحـد الصغير، وداخل الوطن العربيّ الكبير. وساعدت بذلك على تقوية اسرائيل واستتباب الأمور فيها . فأهمُّ ما تريده اسرائيل أن تبقى البلاد العربية مختلفة متباعدة . وهذا ما حققته القاهرة لها ببراعة وتفوّق . فبدلاً من أن تهتم الدول العربية باسرائيل اصبحت تهتم بردِّ عدوان الإشتراكيات عنها ، وظلّت فلسطين مادة للمتاجرة ، والإثارة ، والتهييج .

فكيف ننتصر بهذه الخلافات المزعجة ؟

وكيف نتقدّم والأنانيّات هي التي تطغى وتسود ؟ والوحدة تتباعد ، ولا تتحقّق !

٧ً ــ هدمت هذه الإشتراكيات الطبقات ، لكنها أقامت طبقة جديدة ممتازة ، من رجالهـــا ، حلّت

محل البرجوازية . فاصبحت تعمل لكسب المـــال بكل وسيلة .

وقد اتهمت وكالة انباء نوفوستي السوفياتية الرسمية أوضاع كبار الضباط في الجمهورية العربية المتحدة وتأثير ذلك في حرب حزيران فقالت :

« إن القوّات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة كانت تتمتع بأحدث التكتيك الحربي ، ومن الدرجة الأولى ، وكان يمكن أن تستعمله بشكل فعَّال في ردّ اعتداء اسرائيل . فلماذا لم يحدث هذا ؟

« قبل كل شيء ، لأن ضباطاً وجنرالات كباراً . لم يكونوا يقبلون ضمنياً بالثورة ، ولم يكونوا عملياً على استعداد للقيام بواجبهم العسكري والوطني . لقد كانوا ضد الخط العام الرئيسي لسياسة الحكومة .

« لقد تغيّرت كلياً علاقة الكثير من الضباط بالخدمة في القوات المسلحة نفسها ، وكانوا يستغلّون نفوذهم من أجل تحسين أوضاعهم الخاصة . فكثير من الجنرالات

والضباط الكبار كانوا يتسلّمون مراكز رفيعة في جهاز الدولة ، والصناعة . وتحوّل انتقال الملاكات العسكرية من الجيش الى جهاز الدولة والاقتصاد بمرور الزمن الى تقليد دائم . لقد كانوا في المراكز الجديدة يتمتعون بامكانات كبيرة لتحسين أوضاعهم الخاصة . ان هؤلاء الجنرالات والضباط اصبحوا يملكون دفاتر شيكات وحسابات في البنوك . وهناك حوادث تشير الى أنه فتحت حسابات في البنوك الأجنبية ... وظهر نوع من الضباط المالكين الذين كانوا يعملون في التجارة عوضاً عن تحضير الجنود والضباط عسكرياً » .

(مجلة فلسطين تشرين الأول ١٩٦٧ ص ٣٠)

فاذا صحّ ما قالته هذه الوكالة السوفياتية فإن هذا يعني ان الثورة الإشتراكية لم تستطع أن تتبرأ مما كانت تتهم به العهود الرجعية التي سبقتها .

٨ً ـ هدرت هذه الإشتراكيات أموال الشعب على

التسلّح للقضاء على العدو . وقد بلغت موازنات التسلّح أرقاماً مرتفعة جداً بالنسبة للأرقام المخصّصة للنواحي الثقافية والعمرانية والصناعية . وقد سكت الشعب ، لأن القوّة العسكرية واجبة حتماً أمام عدو لا يفتأ يُسلِّح نفسه ، رغم ما سببه هذا التسلح من استعمار رُوسي خفيّ جديد .

وعندما جاءت الفرصة ، ضاعت الأَسلحة هباءً . لأَن الذين يعرفون استعمالها كانوا مبعدين . فاستعملها من كان لا يحسن استعمالها. وتركوها ـ بسبب الهستريا التي أشار إليها حسنين هيكل ـ للعدو، فأخذها لقمة سائغة . وراح العدو يعرضها في معارض عـامّة في بلاده .

وقبل النكبة ، ذهبت أَسلحة كثير لتفتك بالشعب اليمني باسم الاشتراكية والتقدمية . فكم خرَّبت من مدن ، ودمَّرت من قرى ، وكم أزهقت من أرواح الابرياء المسلمين ، وكم قاست مصر نفسها من ذلك ، إقتصادياً ، وسياسياً .

وهكذا أضعنا الاموال ، وأرسلناها للروس ، ثم أضعنا الأسلحة ، وأخذها العدو ، أو بدّدناها في قتل الأبرياء ، لأنهم غير اشتراكيين .

وعدنا كما بدأنا ، لا مال ولا سلاح !

٩ً ـ هدمت هذه الإشتراكيات الاستقرار في البلاد، التي تحكمها ، وفي البلاد العربية جمعاء . والاستقرار أول شرط يجب تحقيقه لضمان جوّ صالح للبناء والتطور والتقدّم . وكلما اتيح للبلاد الاستقرار الدائم الطويل كانت أقرب لبلوغ أهداف الإصلاح والتنمية والاكتفاء، وازدهار الاقتصاد .

إن فقدان الاستقرار بسبب موءآمرات سابقة أو موءآمرات لاحقة قد تقع للاستيلاء على الحكم ، أو بسبب هدم الكيان العائلي بادخال العقائد الجديدة بين أفراده، أو بسبب تقييد حرية التجارة والصناعة ، أو بسبب غير ذلك، كل ذلك جعل البلاد مضطربة قلقة، لا أمن فيها ولا استقرار ولا رخاء . وهذا بالطبيعة يدفع

الناس الى اليأس ، وقلة المبالاة ، وعدم الانتاج . وحتى العمال والفلاحون أصابهم خيبة الأمل، وانتشر القلق بينهم، فليسوا راضين عن الذين يحكمون باسمهم ويثرون على حسابهم .

* *

هذه هي النواحي الأساسية في الهدم التي قامت بها الاشتراكيات الثورية .

وكانت نكبة حزيران من آثار غرور هذا النظام واستهتاره وإمعانه في الهدم .

والعجيب أن هذه الإشتراكيات ذهبت بعد النكبة المؤلمة تُعلن أن العدو خسر ولم يربح . فربحُ الأرض، وتدميرُ العتاد والسلاح، وإلحاقُ الخزي والعار بالعرب، كل هذا لا قيمة له ما دامت الثورة الإشتراكية قائمة ، والنظام باقياً لم يتهدّم . ففي رأيهم أن النظام يمكن أن يُفتدى بالأرض ، وبالسلاح ، وأن بقـــاء العقيدة الإشتراكية خير من بقاء أرض الوطن .

لقد صرّح بذلك رؤساء الإشتراكية العربية في مصر وسوريه . وصرّح بذلك سفير سورية في باريس للطلبة السورين هناك . فقال : خسرنا المعركة إلا ان البعث لم يُقهر !

فايّ قهر أعظم من هذا القهر الذي نالته الإشتراكيات بدخول العدو الى أرضها ؟ وأيّ ذلّ أعظم من هذا الذلّ الذي لحق المتبجّحين بالبطولات وصنع المعجزات ؟

* *

على أننا نلاحظ ، من ناحية ثانية أن الإشتراكيين أخذوا يتراجعون بعد النكبة عن عقيدتهم، أو يهاجمونها بعنف . وقد يكون ذلك تطبيقاً للمبدأ الشيوعي : خطوة الى الوراء ، ثم خطوتان الى الأمام . ولعل هذه الإشتراكيات أحسّت بالخيبة المريرة التي أصابت العالم العربي بها ، ولعلها أحسّت بتحوّل الرأي العام عنها

ايضاً ، فراحت تتراجع ، ولكنّ تراجعها ، كما يبدو لنا ، انما هو الى حين .

فحسنين هيكل يشعر أن النظام الإشتراكي لم يؤتِ أيّ ثمرة ، فراح يوم ١٨/٨/١٩٦٧ يشيد بالعـــامل القومي وبالقومية العربية . ويسوق البراهين على أن العامل القومي هو خير من العامل الطبقي أو الاجتماعي (يقصد الإشتراكي) في الأزمات والملّمات .

ومن ناحية ثانية نجد كمال جنبلاط الذي كان يدعو الى الاشتراكية وكان تابعاً من توابـع القاهرة ، نجده في ٢٨ / ١٠ / ٦٧ يكتب في جريدته « الأنباء » مقالاً افتتاحياً يُهاجم فيه الإشتراكية الثورية أعنف هجوم لم تهاجم به من اعدائها . فـكان مما قاله :

« لكننا نحن نريد هدم الجدران ، وجدران الفشل حولنا ، بممارسة لون آخر من نفخ الاصوات في الهواء، وانتفاخ نفوسنا بهينمات التبجح،ونفخ تصرفاتنا ونضالنا

بالشعارات الفـارغة لبعض العقائد الملتوية التي كانت ويلاً وثبوراً على العالم العربي وابنائه . وفوق كل ذلك، زيادة في الطين بلّة،جاءت فئة اجتماعية من المثقفين العرب ونصف المثقفين تقلد سطحياً واعتباطياً مسالك الغرب وتحقيقاته ومشاريعه ومثالاته الفكرية ، دون ان تتلمس مصادر العلم والتقنية والخبرة في اعـتماد ذلك وتنفيذه ، ودون ان تختار لذلك الموافقة والملائمة في ظروف التحقيق المادية والمعنوية . فنجم عن ذلـك تخريب واسع في مؤسساتنا الغابرة وفي طاقاتنا الاقتصادية والاجتماعية. والسياسية والقيادية بشكل شامل ، دون أن نستطيـع أن نبرز المؤسسات والقيادات الجديدة بشكل تقدمي ايجابي ذي جدوى في الانتاج والانتظام وازدهار المجتمع والعلم والحضارة وتفتح الانسان . اذ ان الجدوى هي الأساس والهدف في كل عمل بشري ، والجدوى القصوى هي المقياس في نجاح أو فشل هذا النظام . وماذا تفيد الإشتراكية ذاتها أو غيرهـــا من

الأنظمة اذا كان أربابها سيطبقونها بشكل مغاير لقواعد العلم والجدوى القصوى في الانتاج والعمل والازدهار وتنظيم وتنمية القوة المعنوية للشعوب ؟ وماذا تفيد الاشتراكية أو سواها من الأنظمة اذا كانت لن تحول دون الفقر والجهل والتنمية الحضارية والتقوية المعنوية لطاقات الشعوب النفسية والمادية ؟ فالاشتراكية الحقيقية هي اشتراكية التنمية والازدهـــار والديموقراطية والحـــرية السياسية ، اشتراكية الجدوى لا اشتراكية التخلف والفقر .

« وهكذا اندست في ذهنيتنا العـــامة الميثولوجية السحرية شعارات ومثالات عاطفية جديدة تجسدت فيها هذه الذهنية السحرية كما كانت تتجسد من قبل في بعض مناهجنا وتصرفاتنا وانطباعاتنا التقليدية ، فأخذنا منذ سنتين أو ثلاث نتلهى بشعارات سحرية وميثولوجية أخرى عممتها ــ للاستغلال الرخيص لعواطف الناس ــ حركات حزبية في الشرق العربي أطلقت في ما أطلقته

تعابير ومفاهيم أخذت تنحـدر من التصور الثوري الطوباوي الواحد . فامتلأت صحفنا وأنديتنا وعقول معظم مثقفينا بكلمات جوفاء ترددها اصداء وخلايا جوفاء في العقل والخاطر السحري الميثولوجي لنفسيتنا: الثورية والثوريون ، والتحرر والتحرريون ، والذهنية الثورية والفكر الثوري والعقائد الثورية ، والطلائع الثورية ، والجماهير الثورية ، والعلم الثوري ، والفن الثوري ، والنهج الثوري ، والمجتمع الثوري الخ،حتى أضحت كلمة ثورة وثورية تلصق بـأي اسم ومفهوم آخر وأضحت حشواً في كلماتنـــا وفي كتاباتنا وفي عقولنـا .

ثم قال:وهكذا يبرز في الواقع ان الذين يتحدثون عن الثورة ليلاً نهاراً لم يستطيعوا أن يبنوا أية اشتراكية حقيقية في بلادهم ، لأن الاشتراكية الحقيقية تقوم على الحرية وصيانة حقوق الفرد الرئيسية وعلى ضمان حق

الشعب في التعبير عن رأيه في أوضاعه العامة . والذين يتحدثون عن ماركس والماركسية ، معظم الأحيان ، هم أبعد الناس عن ماركس والماركسية .

وقـــال : والثورية التي يتحدثون عنها هي أبعد شيء عن الثورية الحقيقية، وربما يقصد منها مروّجوها إلهـاء الناس عن حقائق واقعهم وضرورة مواجهته بالعلم والعقل والخبرة والمبادرة .

ان التقدمية الإشتراكية هي براء من جميع هذه النزوات الفكرية المغلفة بمركبات نقص أو تغطية لواقع نفساني فردي وجماهيري موروث وفاعل » .

لو كان الذي كتب هذه المقالة رجلاً غير كمال جنبلاط لاتهمته الدعاية الناصرية والبعثية حالاً بأنه عميل للاستعمار ، أو امبريالي ، أو مأجور . ولم يقل جنبلاط فيما ذكرناه إلاّ ما يحسّ به كل إنسان حرّ مفكر في شرقنـــا العربيّ . على أن المهمّ في هذا

أن كلام جنبلاط تراجعٌ عما كان يقوله هو نفسه من قبل .

وفي ٩ تشرين الثاني ١٩٦٧وزّع صلاح الدين البيطار ، أحد مؤسسي حزب البعث ، بياناً على صحف بيروت هاجم فيه حزب البعث الحاكم في سورية ، واتهمه أنه « سقط وتخبط في متاهات الفكر وجهالات السياسة » . وأشار إلى سيطرة الطفولية السياسية والتسلح بالهدس الثوري فيه ، وادّعاءه أنه حزب الوحدة الوطنية للشعب ، وقال إن أعضاء الحزب يسيّرون الشعب بالعصا والقوّة » .

(الحياة ١٠/١١/٦٧) .

وفي ١٠ تشرين الثاني ١٩٦٧ ، صرّح الرئيس المصري للمعلّق الفرنسي ايمانويل داستيه وهو يساري ديغولي ، تصريحاً خطيراً ، قال فيه : إنّ اليهود أبناء عمومةٍ لنا ، وقد عشنا معاً عدة قرون . إن بإمكاننا أن نعيش معاً في البيت نفسه ولكن لا يستطيع أحد أن يحتلّ البيت بكامله ويطرد الآخرين . »

وعندما ساله المعلّق عن رأيه في الشيوعية قال :

«إنني أرفض الشيوعية لثلاثة أسباب رئيسيّة وهي:

١ـ الشيوعية ضد الدين،وهي تقوم على الدكتاتورية، وأنا متمسك بالدين ، ومعارض للدكتاتورية !

٢ ـ الشيوعيـة تقتضي التدمـير والتهديم بالقوة ، وأنا أعارض ذلك .

٣ ـ الشيوعية تحارب القومية ، وأنا أؤمن بالقومية . (انظر: الحياة ، العدد ٦٦٢٣، ١٩٦٧/١١/١١ ، ص ٥).

وإننا لنترك للقارىء أن يتمعّن في هذا التصريح ، وأن يدرك حقيقة ما فيه .

الفصـل الثالث

جَهلنا ذاتنا، وجَهلنا العَدو

إن من البدهيّات أن يعرف الإنسانُ عدوّه، إذا كان له عدو، فلا يدع صغيرةً ولا كبيرةً تتعلّقُ به إلاَّ أحصاها ودرسها وعرفها. ومن المؤكد أننا، رغم الطنطنة والتبجّح العريض نجهل عدوَّنا وقوته، كما نجهل حقيقة أنفسنا وواقعنا وقوّتنا

فبدلاً من أن يُوجّه نشاطُ المخابرات السرية في البلاد العربية، بجهازاتها الضخمة، وأموالها الوفيرة، وقدرتها الواسعة، نحو معرفة حقيقة العدوّ وأسراره، في كل ناحية من نواحيه، وُجّه هذا النشاط للتجسّس على البلاد العربية نفسها قبل كل شيء. وبدلاً من أن يكون للبلاد العربية، آلاف العملاء في بلاد العدو، يمدّونها بالأخبار والأسرار، انتشر عملاء بعض البلاد العربية،

يتجسّسون على أبناء العرب في البلاد العربية الأخرى ، وفي مختلف الميادين .

فكان من نتـــائج ذلك ضعف المعرفة عند البلاد العربية ، وخاصة مصر ، للعدو .

وسنذكر مثالاً يدلّ على ذلك ، والأمثلة كثيرة .

ففي يوم ٢٧/٥/٦٧ نشرت جريدة الأهرام مقـــالاً مطوّلاً في الصفحة الخـــامسة عنوانه « صورة لآخر تقديرات لقوات العدو الاسرائيلية التي تواجهنا اليوم في الجو والبر والبحر . ابتدأتها بما يلي :

« ينبغي – عندمــا يقف الانسان على أبواب معركة كبيرة وحاسمة ، أن يعرف عدوه ، وأن يقدّر قوته بأدق قدر ممكن من التحديد ، دون ما تهوين أو تهويل .

« ومنذ شهر واحـــد أجرت مجلة نيوز آند وورلد ويبورت الاميركية حديثاً مع ليفي اشكول رئيس وزراء اسرائيل سألته فيما اذا ما هوجمت اسرائيل من جانب مصر ، فهل تتوقع المساعدة من الولايات المتحدة . وربما من بريطانيا ؟ فأجاب اشكول : بالتأكيد ، نتوقع مثل

هذه المساعدة ، خاصة اذا أخذنا في الاعتبار كل الوعود الجادة التي أعطيت لنا » .

ثم ذكرت الأهرام القوات الاسرائيلية بتفصيل ، كما هو ملخص في الجدول الآتي .

القوّات الإسرائيلية

٣٥٠ طائرة	تعتمد القوات الاسرائيلية في تسليحها على الولايات المتحدة الامريكية بعد ان كشفت النقاب عن دورها كمورد اول للسلاح ، فقد زودتها في السنتين الاخيرتين بثلث عـــدد طائراتها ، و ٢٠٠ دبابة ثقيلة من طراز باتون .
٨٠٠ دبابة	
٤ غواصات	
٣ سفن إنزال	
١٤ زورق دورية وطوربيد	
٢ مدمرتان	
٧١ ألف جندي «قوات نظامية»	
٢٠٤ آلاف « قوات احتياط»	

على أن الأهرام في مقالها حاولت التنقيص من قيمة الأسلحة الاسرائيلية ، والرفع من قيمة الأسلحة المصرية. فذكرت أن صواريخ هوك ، التي تملكها اسرائيل ، لا تصلح كثيراً ، لأنها لا تفرّق بين الطائرات الصديقة والمعادية . وأن الوقت الذي تستطيع مصر أن تصل فيه بقاذفاتها الى قلب إسرائيل، لا يتجاوز بضع دقائق.

وذكرت أيضاً أنه بالرغم من ترويج الغرب وترديده بلا انقطاع لأسطورة قوة اسرائيل ، فهناك ملاحظتان هامتان: الأولى أن جيش اسرائيل لاتتوفر فيه أي وحدة، لأنه يضمّ شراذم متنافرة من كافة أنحاء للعالم ، لا يحسّ الكثيرون منهم لا بالانتماء ، ولا بالأمن فيه . والثانية : أن إسرائيل لا تطيق التعبئة العسكرية مدة طويلة .

وذكرت أيضاً أن سلاح الطيران الاسرائيلي يضم ١٥ ألف طيار وملاحو ميكانيكي ، وقالت: ويرّجحون أن نحو ١٥ بالمائة من الطائرات لا تستطيع إسرائيل إستعمالها اذا ما نشبت المعركة مع مصر . اهـ .

ولكن في ٢٠ يونيه (حزيران) و ٢١ منه ـ أي بعد النكبة الأليمة ـ نشرت الأهرام تقريراً خاصاً عما أسمته « المساعدات الإستعمارية لإسرائيل في المعركة » وقالت : سوف تكشف الأيام عن أسرار كثيرة لمؤآمرة التواطؤ الإستعماري ضد الأمة العربية وتمكينها للعدوان الإسرائيلي . بالمساعدات الفنية والمعدات .

وقالت : وسوف تتكشف فيما بعد أسرار أخرى كثيرة .

ثم سردت المساعدات الغربية لإسرائيل في مرحلة ما قبل العمليات الحربية، شملت الإمداد بالمتطوعين والمعدات والطائرات .

إذن كل هذه الأمور كانت أسراراً قبل المعركة . فأين المخابرات إذن ؟ وماذا كانت تعمل ؟ وأين رجال الدبلوماسية ؟

وفي عدد ١٩٦٧/٦/٢١ قال الأهرام تحت عنوان :

٤٨٨ طائرة هاجمت مواقع الجمهورية العربية الجوية

في أول ساعتين . ومن أين جاءت ؟

كانت قاذفاتنا بعيدة المدى الحاملة للطوربيد الموجه ضد حاملات الطائرات أول هدف ضُرب في غـــارة صباح ٥ يونيو .

« مطار الأقصر وبنـــاس لا يدخلان في مدى أيّ طائرات اسرائيلية ومع ذلك ضربا في اول ساعة » .

واستنتجت أن الغرب قد ساعد إسرائيل أثنـــاء المعركة أو أمدّها بالقوات المختلفة .

ففي المقال السابق ذكرت الأهرام أنّ لدى اسرائيل ٣٥٠ طائرة،وفي التقرير الجديد المذكور صار العدد ٤٦٨ طائرة . وقد كان من الواجب معرفة هذه الأمور كلها قبل المعركة لا بعدها .

وقد تبين ــ بعد المعركة ــ أنّ ما ذكرته الأهرام قبل المعركة لم يقع ، أو غير صحيح . فصواريخ العدو وقاذفاته لم تضرب إلا الطيّارات المصرية وحدها ، وتبين أن طائرات العدو عملت كلّها ببراعة ونشاط، باعتراف القاهرة .

فما فائدة الاعتذار بعد المعركة أن الغرب ساعد العدوّ ؟ ألم تنشر الأهرام في ٢٧ / ٥ / ٦٧ أن أشكول يتوقع مساعدة امريكا وانكلترا ؟ أما كان يجب أن نحسب لكل شيء حسابه ، أما كان من الجدير أن نعلم أن جيشنا سيواجه عدواً مزوّداً بكل شيء ؟

وكان الرئيس المصري صرّح في مجلس الأمة يوم ٦٧/٥/٢٩ بقوله : « لا ترهبنا امريكا وتهديداتها ، ولا ترهبنا بريطانيا وتهديداتها. »

فما دامت لا ترهبنا امريكا ولا انكلترا ولا اسرائيل، وما دمنا كنا نقول لإسرائيل : أهلاً وسهلاً،وما دمنا صرّحنا بملء أفواهنا أننا نستطيع سحق اسرائيل، وأن استعداداتنا كاملة ومعنوياتنا ممتازة ، ما دام كل ذلك ، فلماذا نضع التبعة في النكسة على أمريكا وانكلترا والاستعمار والامبريالية ؟ وقد علم الرئيس المصري أن هؤلاء أعداؤه . فهل يُنْتَظر من الأعداء العون ، أو السكوت ؟

لقد قال الرئيس المصري مرّات أنه هو الذي سيختار وقت المعركة، ومكانها . ولكن الذي وقع فعلاً مع الأسف الألم، أن اسرائيل هي التي حدّدت وقت المعركة ومكانها .

ولا يمكن أن يُقبل قول الرئيس المصري يوم قدّم استقالته : كنّا نتوقع العدو من الشرق والشمال ، فإذا به يأتي من الغرب ! » فالقائد يجب أن يحسب كل حساب.

ولأنه لم يكن من المنتظر طبعاً أن تخبر إسرائيل الرئيس المصري عن الطريق الذي ستتبعه في الهجوم .

ومن العجيب جداً ، الذي لم يسمع بمثله ، أن يأتي حسنين هيكل يوم ٢٠ تشرين الاول ١٩٦٧ ليكذّب في مقاله « عن العدو » ما قاله الرئيس المصري يوم استقالته . فقال :

« من الواضح الآن وقد تكشفت كل أسرار العمليات — أو معظمها — أنّ كل خطوة قام بها العدو »

كانت هي الخطوة الطبيعية المتوقعة أو التي كان يجب أن تكون متوقعة .

« وحتى بالنسبة لمفاجأة الطيران فان العدو لم يجيء من الغرب كما كان الظنّ قبـــلا ، ولكنه سلك طريق الاقتراب الطبيعي ، وهو الفجوة مـــا بين بور سعيد وبحيرة البرلـّس . » .

فمـا ندري كيف نفسّر هذا التكذيب الضمني لقول الرئيس المصري ؟

هل كان قوله يوم استقال « ظنّاً » ؟ محته الحقائق فيما بعد ؟

أم أن القيادة المصرية ما كانت تعرف الطريق الذي يُتوقع أن يسلكه العدو ؟ وقدّرت أنه سيهجم من الشمال فقط ؟

تساؤلات كثيرة يمكن أن تُثار ، كلّها تؤدي الى حقيقة واحدة : الاستهتار، وعدم الاستعداد الصحيح،

ثم الجهل بالذات ، والجهل بالعدو .

فضلاً عن أن التكتيك الاسرائيلي للهجوم على البلاد العربية كان معروفاً . ففي عام ١٩٦٦ أصدر العميد هيثم الكيلاني كتاباً اسمه « الموقع الستراتيجي العربي » جاء فيه :

« من المنتظر أن تشن اسرائيل في اللحظات الأولى من الحرب هجوماً جوياً عنيفاً ومفاجئاً ومدعوماً بنيران الصواريخ على القوات الجوية في سورية والجمهورية العربية المتحدة ... وذلك بغية تدميرها ص ٢٨١ » .

وإذن فإن الهجوم المفاجىء والمباغت لم يكن سراً . وكان يدرّس في المدارس الحربية ، فكيف غفلنا عن ذلك كله ولم نتأهب لدفع ضربات العدو المنتظرة ؟

لقد كان التأكيد على الاستعداد والقوة والسحق جازماً ، واضحاً .

وكان الرئيس المصري يتحدث بكل حزم وجزم في مؤتمره الصحفي الأخير، قبل النكبة، عندما قال :

« لن تستطيع قوة من القوى ، مهما بلغ جبروتها، وأنا أقول ذلك بوضوح ، لكي يعرف كل الأطراف موقفهم ـ أن تمس حقوق السيادة المصرية .

« وأيّ محاولة من هذا النوع ستكون عدواناً ، وسوف نُلحق بالمعتدين أضراراً لا يتصوّرونها » .

ولقد كان الرئيس المصري يتحدّث بحزم وجزم عندما قال ليوثانت يوم جاء إلى القاهرة :

« إن ج ع م اتخذت ما اتخذته من مواقف ، وهي على استعداد لتحمّل مسئولياتها في كل الظروف . (الأهرام ٢٥/٥/١٩٦٧) .

فلماذا تخلّت ج ع م عن مسئولياتها ، وألقت التبعة

على الدول الغربيّة التي ما كان يُنتظر منها أن تساعدنا ؟

وكان الرئيس المصري أيضاً يتحدث بجزم وجزم في لقائه مع العمال العرب عندما قال :

« إحنا على ثقة إن إحنا دخلنا المعركة نستطيع أن ننتصر » .

ثم أكد قائلاً :

« إذا هاجمتنا إسرائيل في أي مكان ، فسوف نهاجمها في كل مكان . وسوف نقوم بتدميرها كاملاً ، ولن تكون المعركة محدودة » (الأهرام ٢٧ / ٥ / ٦٧) .

ثم يأتي حسنين هيكل الذي لا ينطق من عنده فيقول يوم ٢٦ / ٥ / ١٩٦٧ :

« كان هناك اعداد وحشد القوة المصرية القادرة .

« وكانت هناك القيادة المبدعة ...

« ... ولتبدأ اسرائيل ،

« ولتكن بعدها ضربتنا الثانية متحفزة وقاضية ! »

فأين التأكيد بالتدمير الكامل ، والنصر العميم ؟

وأين القيادة المبدعة ؟

وأين القوة القادرة ؟

النصر انقلب الى هزيمة ونكبة ، والقيادة اتُّهمت بالخيانة والمؤامرة ، والقوّة اتُّهمت بالعجز .

ألم يقل حسنين هيكل نفسه إن الجيش عند العدو كان عصرياً ومتعلّماً ، وإن الجيش المصري لم يحسن استعمال الأسلحة التي كانت في يديه ، وإن القيادات أصيبت بالهستريا ؟..

وأحب أن أنقل كلامه بالحرف :

لقد قال : يكاد الاجماع ينعقد ما بين الخبراء العالميين... على أن النكسة الحقيقيه تتمثل بالدرجة الاولى في الضربة الموجهة للطيران المصري، والتي كان الفشل في توقيها مذهلا

وكان من آثارها أن بعض عنـــاصر القيادة العسكرية أصبحت في حالة عصبية الى درجة مقلقة ، وأن هذه العناصر فقدت بعد ذلك كل ثقة في إمكانية النصر ، وأن القوات وصلت اليهـــا العصبيّة ايضاً فتخلخلت » . (الاهرام ٦ / ١٠ / ١٩٦٧) .

وعلى هذا فإن القاهرة كانت جاهلة القوة الحقيقية للعدو ، كما أنها كانت تجهل حقيقة قواتها وجنودها ، وتجهل ضعف الإيمان عندهم ، وتجهـــل قدرتهم على الثبات ، وتجهل مقدار تعرّضهم للعصبيّة ، وصمودهم أمام العدو .

وكانت تلك التصريحات الفخمة ، لا تستند الى دقة ، ولا تقوم على تحرٍ وصدق .

ولقد اعترف حسنين هيكل أيضاً بأن الجيش المصري « تصرّف أمام العدو بقصور غير عادي ، وأن العدو تصرّف فيما حصل عليه من الإمكانيات ببراعة غير عادية . وأن العدو حقق انتصاراً أكبر مما كان

يستحق ، وأن مصر أصيبت بهزيمة أكبر مما كانت تستحـق » .

وذكر أخطاءً وقعت بها القيادة المصرية ، وقال :

« ان بعض القيـادات او الجنود بهره مظهر القوة المصرية التي حرّكتها القاهرة ، لكن الحرب الحديثه ليست حشداً لأكبر كمية من السلاح ، وإنما مقدرة استخدام السلاح . وساق قول الكاتب الاميركي تيودور وايت الذي شهد ارض المعركة فقال: احسست اني اجد على ارض المعركة آثار قوة ضخمة ، لكن اليد التي كانت تمسك بهذه القوة لم تكن عليمة بكل امكانياتها وقدرتها .. » .

ولقد أجمل الملك الحسن عاهـل المغرب الموقف ، ووصفه أحسن وصف في تصريح أذاعه من راديو الرباط ، فقال :

« لا يمكن أن نقول إنه كانت هناك خيانة ، من الاتحاد السوفياتي ، ولا الولايات المتحدة ، ولا دول أخرى ، فليس ثمة واحدة من هـذه الدول وعدت العرب أن تقاتل الى جانبها .

« إن جميع هذه الدول تعترف باسرائيل دولةً قائمة . فليس إذن مجال لأي دهشة أو مفاجأة . لقد كان العرب يعرفون ماذا يتوقّعون .

« إن هناك مبدأ يتلقونه في كل مدرسة عسكرية . هو : لكي تعلن القتال ، يجب عليك اختيار الوقت والمكان والوسائل .

« أما الوقت فلم يكن قطّ مواتياً ، لأن العرب كانوا منقسمين .

« وأما المكان ، فلم يكن أكثر مواتاة . فعندما أغلق العرب خليج العقبة كان عليهم أن لا يعتمدوا على أيّ عون سوفياتي .

« أما الوسائل الحربية فلم يُحسن استعمالُها ، وضاعت ... » . (الفيغارو، ١٠ تموز ١٩٦٧، ص ٣) .

إذن كانت النكبة ضربة ، كما قال الرئيس المصري،

جاءت بأكثر مما توقعناه . كانت الحسابات غير دقيقة ، وكانت المخابرات المصرية أيضاً عاجزة . ولقد اعترف بذلك حسنين هيكل في الأهرام يوم ٢٠/١٠/٦٧ ، إذ قال :

« العدو الاسرائيلي يملك نظام مخابرات يعتبر من اقدر أجهزة المخابرات في العالم ...

« وينبغي التسليم بان المخابرات العربية بصفة عامة لم تكن على نفس هذا المستوى من الكفاءة .

« ان بعض أجهزة المخابرات شغلت نفسها بالداخل طلباً للسلطة ، ولم تعط العناية الكافية للناحية الأخرى من خط النار » (٢٠ / ١٠/ ٦٧) .

هذا صحيح . وكان ينبغي أن تشتغل بالعدوّ أكثر من اشتغالها بالداخل .

* *

ومن ناحية ثانية فقد نشر السيد حسين ذو الفقار صبري ، وهو ضابط قديم ، من أركان العهد في مصر

مقالاً في مجـــلة المجلة اعترف فيه بأن الخطط الحربية الموضوعة لرد الاعتداء كانت ممـــلوءة بالأخطاء ، وأنه لم يتبع فيها التكتيك الحديث في الحرب (مجلة المجلة اكتوبر ١٩٦٧) .

وقاريء المقال يحس بالصراحة التي يعالج الكاتب فيها موضوعه ، ويحسّ أن النظريات القديمة البالية هي التي طبقت في الدفاع .

أليس هذا دليل آخر على أننا كنا لا نعرف قيمة أنفسنا الحربية ، وقيمة خططنا العسكرية ، وأساليبنا الدفاعية ؟

أليس هذا يدل على الارتجال والاستهتار ؟

ونشرت الصحف الناصرية ، من ناحية ثالثة ، وعلى رأسها الأهرام في القاهرة والأنوار في بيروت ، أخباراً عما أسمته فضائح النكبة ، ونسبت الى بعض رجال الجيش المصري تهماً أقلها الإثراء غير المشروع، والفساد،

وغير ذلك . فإذا كان هـذا كله صحيحاً ، فكان من الواجب معرفته قبـل المعركة لا بعدهـا . وإذا كان غير صحيح فهو هدم لدفاعنا وقوّتنا في سبيل أنانيتنا ومحافظتنا على الحكم . وفي الحالين كنا نجهـل انفسنا ونجهل عدوّنا .

* *

على أن جهلنا العدوّ لم يقف عند حكوماتنا . فالشعوب العربيَّة كلها لا تعرف شيئاً عن إسرائيل ، ولا عن سكانها، وهجراتهم وأصلهم ، ولا عن دولة اسرائيل أو اقتصادياتها ، أو الحياة الثقافية والعلمية فيها . وقد كانت اتخذت جامعة الدول العربية قراراً بمنع إدخال أي كتاب يذكر فيه اسم اسرائيل . وعمدت وزارات الأنباء والإعلام الى قصّ أي مادة من كتاب ، فيه اسم إسرائيل. حتى دائرة المعارف ، ومعجم لاروس، قصّوا منهما ما كتب عن إسرائيل. إنه ليخيّل إليّ أن الذي اقترح هذا في الجامعة كان جاهلاً أو عميلاً ، لكي يُبقي العرب عمياناً ، أو أن الدول العربية نفسها ،

عمدت الى ذلك لئلا يعرف العرب مدى تقدم اسرائيل وتأخر الدول العربية وركودها. وإلا فما معنى ذلك ؟ فبدلاً من أن تنشط وزارات الأنباء الى إفهام الشعب وتنويره وتقديم كل الحقائق عن عدوه ، ليكون ذلك حافزاً للعمل والتعلم ، عمدت الدول العربية الى إغماض عينيه ، ومنع المعرفة عنه في هذا السبيل .

إنّ فرنسة لم تمنع مـــا كان يُكتب عن المانيـا الهتلرية ، في الماضي . وإن امريكا لا تمنع اليوم مـا يُكتب عن الإتحاد السوفياتي .

وحتى أخبار النكبة الأخيرة ، منعت بعض الحكومات دخولهـــا الى البلاد ، وخاصة ما نشر في الصحف الأجنبيّة . بحجة أنهـا قد تضعف المعنويات عند الشعوب العربية . لكن الصحيح أن ترك الجماهير معلّقة بالأوهام والأباطيل ، وترك عبادة الأشخاص قـائمة بينهم ، هذه العبادة التي نوّه بهـا الملك حسين

في خطابه في طرابلس بلبنان ، هو الخطر العظيم ، الذي يسوق الأمة الى الفناء .

* *

ونعود للتاكيد على ما ذكرناه .

كنا لا نعرف أنفسنا ، ولا نعرف عدونا .

واتبعنـــا طريقة « البَلْف » وسيلة للضغط على إسرائيل وأمريكا والغرب لكي تذعن لمطالبنا .

لكنّ الجهـل قضى علينا ، والبلف لم ينجح مع أعدائنا .

فهاجَمَنا العدوُّ ، ودفعنا ثمن الجهل والبَلْف غالياً .

خسرنا مئتي مليون دولار قيمة معدات حربية استولى عليها اليهود فقط ، أما ما تلف في الحرب ، في سورية ومصر والأردن ، فبلغ مليارين من الدولارات . (أنظر لوموند ، يوم ٩ ايلول ١٩٦٧ ، ص ٤) .

وكان جزاؤنا عظيماً ومُرّاً .

الفصل الرابع

تخلفنا العلمي

اعترف حسنين هيكل في الأهرام (٢٠ اكتوبر ، ١٩٦٧) فقال :

« لقد كنا أمام عدو متعلم وعصري . وهذه العبارة وحدها قد تغني عن كل تفصيل يجيء بعدها، كما أنها تلخص بدقة كل عناصر التفوق التي احرزها العدو » .

وقال أيضاً :

« ان نوعية الجندي الاسرائيلي لها قيمة قتالية تستحق الاهتمام .

« ولقد كان بين الجنود الاسرائيليين اساتذة جامعات ، واطباء ، ومهندسون دعتهم التعبئة العامة الى مواقعهم. وكانوا يعرفون وحداتهم من قبل ، ويرتبطون بصداقة يصنعها التدريب المستمر والمنظم مع رفاقهم في السلاح.

« ثم ان الهدف كان قاطعاً امام جنود العدو : تكون اسرائيل او لا تكون .

وختم مقاله فقال :

« اننا امام عدو متعلم وعصري ، وليس هناك حل آخر امام الطرف العربي على خط المواجهة الشاملة غير ان يكون هو متعلماً وعصرياً » . (الاهرام ٢٠/١٠/٦٧)

لقد سقت أقوال حسنين هيكل هنا عمداً ، لأظهر للقارىء أن مثل هذا الاعتراف منه ، أو من القاهرة ، كان ينبغي أن يكون أو يُعرف قبل النكبة .

وأنه كان يجب أن تتخذ التدابير كلّها لجعل الجندي المصري أحسن من الجندي الإسرائيلي في العلم وفي كل شيء ، بدلاً من نفخه بالغرور .

وملاحظة حسنين هيكل نفسها قالها أريك سولو مراسل لو موند في القاهرة ، إذ قال : إن بلاداً متخلفة مثل مصر يمكن لها أن تقاس بصعوبة بدولة غربية متقدمة جداً مثل إسرائيل . إن الجيش الإسرائيلي

يقـوده أوروبيُّون أتقنوا التكنيك الحربي الحديث ، وليس هذا شأن مصر . (إسرائيل والعرب ، المعركة الثالثة ص ١٢٤) .

ومما لا شك فيه أنّ هناك اختلافاً كبيراً في المستوى العلمي والفني بين إسرائيل والدول العربية، ليس في المستوى الحربي ، أو في مستوى الجنود فقط ، بل في جميـع نواحي الحياة .

فهؤلاء اليهود الذين جاؤا إلى فلسطين ليسوا من اليهود الشرقيين الذين كانوا يعيشون معنا ، وتعرّبوا ، وأثّرت فيهم مؤثرات الإقليم والمحيـط والعادات ، والعقليَّة المشتركة أيضاً ، بل هم من اليهود الاوربيين الذين نشأوا في محيط أوروبي ، وأوتوا العلم والثقافة ، والتخصص ، والذكاء ، والبراعة ، بالاضافة الى هستريا من الإيمـان الديني الصهيوني الذي دفعهم الى الهجرة والبقاء في فلسطين .

وهذا التخصّص الذي أُوتيه اليهود تخصّص شامل في جميع نواحي المعرفة ، وخاصة في النواحي العلمية التجريبية : الرياضية والطبيعية وغيرها .

فهم يملكون هذه العلوم ويبدعون ويخترعون في مضمارها . وإننا لنستطيع أن نعُدّ مئات من علماء اليهود في الطبيعة والكيمياء والذرة مثلاً . في حين أننا نحن ما نزال متخلفين علمياً وتكنيكياً . فلا نملك العلوم التجريبية ولا نبدع فيها ، ولا نستطيع أن نعدّ من علمائنا فيها خمسة عالميين .

كما أن الإيمان الديني الذي يدفعهم بهستريا مماثلة الى التقدم والتعلُّم والسلطان والسيـــادة معدوم فينا ، وبعض مفكرينا وأدبائنا يريدون إبعاد الدين ومحوه من حياتنا .

وهؤلاء اليهود ذوو عقول منظَّمة ، تدين بالتخطيط

والـبَرْمجة ، وتحسب لكل شيء حسابه ووقته ومداه . ونحن ذوو عقول طائشة ، تقوم على الإرتجال ، وتخضع للعاطفة ، وتندفع بالتهوّر والتطرّف .

فالتخطيط عندهم يشمل كل منحى : في السياسة والإدارة، والإقتصاد ، والإجتماع ، والتربية، والصناعة ، والمصادر المائية والزراعية ، والمواصلات . وهـذا التخطيط يهدف إلى التحسين والكمال والزيادة .

ونحن لا تخطيط عندنا ، وإذا وُجد فناقص ، أو يهدف إلى الخراب والهدم ، كالحال عند الإشتراكيّات الثورية . إنه تخطيط سلبي ، قاتل .

واليهود يتمسّكون بالواقع ، ويدرسونه بشكل علمي موضوعي ، ويتصرّفون لينسجموا مع الواقع أو ليجعلوا الواقع ملائماً لهم . ونحن نتمسك بالخيال ، وتروق لنا الأوهام ، ونعشق الكلام ، وسرعان ما يصدمنا الواقع ببشاعة ومرارة .

واليهود يؤسّسون مراكز الأبحاث ، ويقدّرون العلماء ، ويدفعون هذه المراكز وأولئك العلماء للعمل الصرف ، لأنهم علموا أن الأبحاث وحدها هي الوسيلة الوحيدة لمعرفة الواقع ، ولتحسينه ، ولبلوغ الأهداف المرتجاة .

ونحن لا مراكز علمية عندنا ولا معاهد ، وإن وُجدت فميتة لا تعمل، أو لا يعمل فيها العلماء المختصون. وعلماؤنا ، الذين يرتجى منهم خير ، مهملون ضائعون .

واليهود ، أغنياؤهم ومؤسساتهم المالية في العالم ، تتبرّع للأبحاث العلمية في اسرائيل بالملايين ، وأغنياؤنا ومؤسساتنا المالية ، وأمراؤنا وحكامنا ورؤساؤنا لا يتبرعون بقرش واحد . ويتساءلون : لماذا التبرع للعلم ؟

واليهود يستفيدون من جميع الكفاءات العلمية التي توجد لديهم أو التي تنتسب إليهم ، مهما كان جنسها أو بلدها أو مذهبها . في حين أننا نضطهد الكفاءات ، ونبعثرها ، ونشرّدها ، فتستفيد كل أمة من

كفاءآتنا ، ونحرم نحنُ منها ، بفضل الإقطاع الحزبي الذي فرضته الإشتراكيات الثورية .

وقد أصبح من الثابت لدى جميع الأساتذة والمثقّفين أن المستوى العلمي قد انخفض في المدارس الإبتدائية والثانوية والجامعيّة في مصر وسورية . ولاحظ هـذا أيضاً المستشرق الفرنسي الأستاذ جاك برك فقال : إنكم مصابون بتدهور ثقافي مخيف ، واخترع لهذا كلمة

Deculturisation.

وأخيراً ، فإسرائيل تتقدم بخطى واسعة ، بفضل عنايتها بالعلم ، نحو الإكتفاء الذاتي ، وأخذت تصدّر مصنوعاتها ــ حتى الحربيّة منها ــ إلى افريقية وآسية ، ونحن بفضل الإشتراكيات نمشي نحو الوراء ، ما زلنا عالةً على الغرب ، ومـا زلنا نستجدي حتى الأسلحة الخفيفة .

فهذه الأمور كلها تجعل إسرائيل متفوقة علميًّا علينا . وزماننا هو زمان العلم . فالذي يملك العلم هو

الذي يستطيع أن يسود ، وهو الذي يستطيـع أن يفرض إرادته .

فلا يمكن أن ننتصر بالجهل .

ولا يمكن أن نتقدم بالتخلُّف .

ولا يمكن أن نسود بالأوهـــام ، ولا بالخطب والأغاني والكلام .

الفصل الخامس

ورم الغرور

أصيبت الكثرة من الأمة العربية في السنوات الاخيرة ، بفضل الإشتراكيات الثورية ، بمرضٍ قاتل خطير ، هو مرض « ورم الغرور » . فعاشت الجماهير العربية في انتفاخ زائف مَرَضي ، لكثرة ما كانت تسمع من الاذاعات من ادعاء القوّة ، والتبجّح الزائد ، والمغالاة المفرطة ، والطنطنة الجوفاء ، وعدم المبالاة بأي دولة ، مهما عظُم شأنها ، والتطاول عليها سفهاً وشتماً ، والإستهتار بالقواعد الدبلوماسية الدولية ، والكبرياء الزائفة ، وغير ذلك .

ومن المؤسف أن الجماهير ، ظنوا أن هذا الانتفاخ سِمَنٌ ، لكنه في الحقيقة وَرَم .

ولا مجال لسرد الامثلة الدالة على هذا الورم ، فهي

أكثر من أن تُحصى لكن لا بُدّ من ذكر انموذجات منها ، تبيّن أننا كنا مخطئين ، وأن أخطاءنا القاتلة أودت بنا إلى النكبة المخزية .

لا شك أن الدول العربية أضعف من أمريكا ، وأمريكا باعتراف الرئيس المصري أقوى دولة في العالم . قال ذلك في مؤتمره الصحفي الذى عقده قبل الحرب الأخيرة بأسبوع. فإذا كان الامر كذلك، فلماذا التطاول بالسباب والشتائم والتشهير عليها ، وما فائدة ذلك للعالم العربي كله ؟

فهل تخاف أمريكا منّا ، فتبادر الى تقبيل أيدي حكامنا ؟ أم كانت السباب حرب أعصاب فقط لا تفيد ، أم كانت للاستهلاك المحلي وتضليل الجماهير ؟

فالمتتبّع للصحف الإشتراكية ، شهراً قبل الحرب، يجد فيها من التشهير بأمريكا والإلحاح على ذلك ما يثير أعصاب أي دولة . وهاكم نماذج منها :

اميركا تتراجع (مانشيت الجمهورية يوم ١ مايو –

خوفاً من السلال !) الاسطـول السادس يقوم بتحركات عصبية والاسطول السوفيـاتي المزوّد بالصواريخ يتبعه (الجمهورية ١ / ٦ /٦٧)

٣٥ ٪ من طلبة جامعة ييل يتعـــاطون المخدرات (الاهرام ١٤ / ٥ / ٦٧)

تقرير هام يكشف عن انتشار الفساد والرشوة بين رجال البوليس الاميركي . (الاهرام ٢/ ٥ / ٦٧)

الانحلال في جامعات امريكا (الاهرام ٤ / ٥ / ٦٧) .

تحـــذير من الملك حسين الى جونسون (الاهرام ٢ / ٦ / ٦٧)

فهذه العنوانات والأخبار تدل على تعمد في تشويه سمعة أمريكا، كما تدل على الاستهتار، سواء كانت صحيحة أم لا .

*

ومن مظاهر مرض الورم والغرور التعليقات التي كانت تنشر في الصحف قبل الحرب ، والتي أثبتت الحوادث كلها أنها كانت تعليقات بعيدة عن الواقع ، كلّها غرور وتبجح .

ففي يوم ٢ يونيه كتبت الأهرام في زاوية رأي الأهرام تعليقاً عنوانه «الضغط الأميركي مصيره الفشل». جاء فيه :

« فتيار الثورة التحررية العربية الجارف ... لا يمكن بحال أن توقفه أساليب التهديد والضغط والابتزاز الأميريكية ، لا يمكن أن توقفه التحركات الأميركية المريبة نحو البحر الأحمر ، ولا التصريحات الحمقاء لقائد الأسطول السادس ...

ثم قالت :

« إن ما يعتمل به الوطن العربي من عزم نضالي جارف هائل اليوم ، ليس بأي حال من الأحوال ، هوى كفاحياً طارئاً ، أو حماساً سياسياً مفاجئاً مندفعاً ، ولا هو قط ، ولا يمكن أن يكون مجرد إستجابة عربية سريعة ، لإستفزاز إسرائيلي ظاهر ، فتلك قضايا يمكن للأمة العربيه القوية اليوم ، بما وصلت اليه من قدارات نضالية وإمكانيات مادية ومعنوية ، يمكن لها أن تحلتها سريعاً مع العدو الإسرائيلي نفسه . ولكن القضية الحقيقية أعمق من ذلك وأخطر بكثير ، وهي : هل ستترك الولايات

المتحدة الأمريكية القوة القائدة للرجعية العالمية ، وللثورة المضادة العالمية ، هل ستترك الثورة العربية التحررية ، تأخذ مجراها التاريخي الهائل ؟ هل ستدعها تقبض بأيديها ولأول مرة في تاريخها الحديث على قضاياها المصيرية الجوهرية ؟ هل ستتركها تستعيد في هذا المكان الذي تشغله من العالم ، حريتها القومية وكرامتها القومية في مواجهة سياسة التبجح والغرور التي مارستها العصابات الصهيونية الإسرائيلية طوال ٣٠ عاماً ؟ تلك هي في الحقيقة مصادر الإستبسال العربي الماضي والحاضر والمستقبل في معركة الضغوط الأمريكية الغربية .

« ان إنتصار الشعوب والثورات في معركة الضغوط كان قانوناً عاماً غالباً ، بهذا أنبأ تاريخ الثورات التحررية والإشتراكية الظافرة في الهند ، والصين ، وفيتنام ، وغيرها من البلدان المكافحة الصديقة ، ولن تكون الأمة العربية استثناء من هذا القانون الحتمي الظافر ، ذلك إنها وعت جيداً واستفادت حقاً ، واغنت خبرتها وتجربتها الثمينة من معارك الضغوط السابقة وانما ستدور الدوائر بالفعل على الاستعماريين الذين لم يتعظوا بهزائمهم الأمس ، وأخذوا يكررون بحماقة القوة الرعناء ، نفس أساليب الماضي الفاشله ، ويرفضون الأذعان لمنطق التاريخ وعبره » .

هذا هو رأي الأهرام . وهذا الرأي يؤكد أن الاستفزاز الاسرائيلي كان أمراً سهلاً يمكن أن يحل بسهولة وسرعة مع العدو . بل إنه كما يبدو ، من لهجة الكاتب ، أمر تافه لا يؤبه له . وقد أثبتت الحوادث فيما بعد أن الضغط الأميركي كان أعظم مما تصورته الأهرام ، وأن الاستفزاز الاسرائيلي لم يحل بسرعة وسهولة لصالح العرب ، بل كان نكبة وخسارة ، وكان خطره أعظم من الرجعية . فبمثل هذا الكلام الخطابي الفارغ المملوء بالتبجح والطنطنة والغرور انكسرنا .

وقبل ذلك ، في ٢١ مايو ظهر في الجمهورية في باب « رأي الجمهورية » ما يلي :

« الآن وعصابات اسرائيل تتقهقر امام حدود سورية وهي تتلفت الى الوراء في فزع لترى الجيش المصري في سيناء فتتحول مثل امرأة لوط ، كما جاء في التوارة ، الى تماثيل من الملح ...

ولكن من المؤسف جداً أن كلام الكاتب لم يتحقق أيضاً .

وبينما كان مجلس الأمن يقف عاجزاً عن إيجاد حل لقبول اسرائيل بقرار مصر باستعادة حقها الواضح في خليج العقبة، وبينما كانت مناورات الدول سافرة ضدنا قبل العدوان وبعده، ظهرت الأهرام يوم ٢٦ / ٥ / ٦٧ تقول: « رأيها » بعنوان « وحتى في مجلس الأمن يتأكد التفوّق العربي » . فقالت :

«معركة المصير محتدمة على جميع الجبهات، والمبادرة العربية في كل ميدان سباقة بارعة وحاسمة . والمستعمرون وأذنابهم الذين أصابهم الإرتباك يجهدون أنفسهم بحثاً عن ميدان يتصورون أنهم يستطيعون أن يحرزوا فيه كسباً . من ذلك تلك المحاولة المتعجلة المحمومة التي بذلت لعقد جلسة طارئة لمجلس الأمن الدولي . وفي تلك المحاولة استغل الأمريكيون الشخص الذي يتربع هذا الشهر على مقعد رئاسة المجلس، وهو مندوب حكومة فرموزا، ذيل أمريكا في الشرق الأقصى . ومن المؤسف — على حد تعبير السيد القوني مندوبنا الدائم في الأمم المتحدة — أن تنوب كندا والدانمرك عن امريكا وبريطانيا في طلب اجتماع المجلس . »

«وعلى الرغم من أن أمريكا تعلم أنهـا لا تستطيع أن تستصدر قراراً من مجلس الأمن ضدنا ، إلا أن الذين دعوا لاجتماع المجلس على هـذا النحو يهدفون من وراء ذلك الى أغراض عديدة،أولها العمل على تعبئة الرأي العام العالمي ضد الموقف والحق العربي . ولكن هذا الهدف لم ينجح ، حيث وقف مندوبو الاتحاد السوفييتي والبلاد الاشتراكية والمحايدة يفضحون المؤامرة الصهيونية الاستعمارية على أمن سورية ، ويؤيدون حق سيادتنـا على أراضينا ومياهنا الاقليمية في في سيناء وخليج العقبة . بل ان المستعمرين خسروا، فقد ظهر أن صفوف الغرب نفسه غير موحدة ، اذ لا تستطيع الدول الأوروبية أن تتجاهل ما قد يلحق باقتصادها من أضرار اذا انقطع عنها البترول العربي . وفي هـذا تتخذ فرنسا موقفـاً متميزاً إذ تتزعم الدعوة الأوروبية لإيجاد مخرج من المأزق ، يختلف عما تمليه الدوائر الصهيونية والأمريكية المتطرفة ، ومن ثم كان اهتمام الرئيس عبد الناصر شخصياً بتوجيه رسالة الى الجنرال ديغول .

ثم قالت :

وقد أثبتت الدبلوماسية المصرية انهـا لا تقل تفوقاً على خصومها الحاقدين ، كما أثبتت المبادرة الثورية تفوقهـا على

معسكر الأعداء في كافة الجبهات الأخرى، وهو تفوق يفسد الهدف الأخير من المناورات التي أديرت في مجلس الأمن فنحن الآن نمارس حقوق سيادتنا كاملة على مياهنا الاقليمية في مدخل خليج العقبة » .

وقد أثبتت الحوادث بعدُ ، أن التفوّق العربي لم يكن مطلقاً في مجلس الأمن ، وأن ما كتبته الأهرام طنطنة مضللة ، لم تكن صحيحة .

وكانت الأهرام قبل يوم واحد ٢٥ / ٥ / ٦٧ تقول في « رأيها » : أنظار العالم كلّه علينا ، ونحن نملك زمام الموقف . فقالت :

« أنظار العالم كله اليوم على القاهرة بعد أن أصبحت تملك زمام الموقف .

الشعوب العربية تفور بالحماس والاستعداد للقاء الحاسم مع اسرائيل وحماتها المستعمرين وشركائها الرجعيين . والاستعداد على المستويين الحكومي والشعبي في الدول العربيـة التقدمية على قدم وساق . والزيارات التي يقوم بهـا قادة هذه البلاد للقاهرة قصيرة خاطفة، فدواعي المعركة لا تترك مجالاً لتبديد

وقت او تزيـد من حديث ، والموضوع المطروح هو تلاحم قوى النضال العربي في مواجهة العدو .

«والرجعيون العملاء في البلاد العربية في موقف لا يحسدون عليه. لقد أخذتهم قيادة الثورة العربية وأحاطت بهم وهزت العروش من تحتهم . أدركوا فجأة ، بعد أن طالت بهم الغفلة وأمعنوا في التنطع ، أدركوا ان لا حول لهم ازاء استعمار يأمرهم فيتحركون، او ازاء شعوب تشل حركتهم في لحظات المد الثوري العظيم وغاية جهدهم اليوم ان ينافقوا فينحنوا كسباً للوقت حتى يلتقط سادتهم المستعمرون أنفاسهم ، ويستعيدوا القدرة على اصدار الأوامر وتحريك الدمى .

وعواصم الغرب في حيرة وارتباك لاعهد لها بمثله منذ مأزقهم السابق في السويس . فالاستراتيجية الأمريكية للاحاطة بالجمهورية العربية المتحدة وتحريك قوى الثورة المضادة في المنطقة تقلب اليوم رأساً على عقب . والعواصم الأوروبية في جزع من ان تؤدي أعمال العدوان والصهيونية والاستعمارية في الشرق الأوسط الى انقطاع البترول العربي ، فتبيت مدن أوروبا في الظلام ومصانعها في بطالة . والخلاف المتوقع بين عواصم الغرب بدأ يظهر ، حيث أعلنت باريس ان التصريح الثلاثي (الذي صدر عن أمريكا وبريطانيا وفرنسا

عام ١٩٥٠) قد شبع موتاً ، بينما لا تزال بعض دوائر لندن وواشنطن تحاول تحريك جثته !

والشعوب والدول الصديقة تتحرك على النطـاق العالمي لتتوحد في معركة جديدة ضد قوى العدوان والامبريالية العالمية . الاتحاد السوفياتي يعلن ان قوى العدوان لن تجابه الجمهورية العربية والشعوب العربية وحدها ، ولكنها ستواجه كل القوى المحبة للحرية والسلام في العالم . والصين الشعبية ، والهند ، ويوغوسلافيا ... وغيرها من دول آسيا وافريقيا تتحرك على المستويين الحكومي والشعبي بقوة تتزايد مع كل يوم حدة وحماساً .

المعركة تتجدد بكل معالمها وتقترب من ذروتها والنصر يلوح في الأفق وهي لا تزال في بدايتها .

وإذا بالحوادث فيما بعد تثبت أن رأي الأهرام كان كله خطأ . فالمد الثوري انقلب جزراً وانحساراً ، والرجعيّون لم يسببوا للأمة العربية النكبة والهزيمة ، والشعوب الصديقة ! لم تستطع أن تفعل لنا شيئاً .

وقد كانت مقالات حسنين هيكل نموذجاً رفيعاً يعكس ألواناً من هذا الغرور الذي يشبه معلقة عمرو

ابن كلثوم . والمؤسف أن جميع ما كتبه هيكل قبل ٥ يونيه ، قد جاءت النكبة لتكذبه حرفاً حرفاً ، استمع إليه يقول قبل النكبة بثلاثة أيام (٢ حزيران ١٩٦٧) .

« وتقدم الجيش المصري بقوة لم ينتبه لها راسمو الخطط الاستراتيجية في المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ، ولا تصوروا وجودها .

وتقدم بكفاءة كانت المؤسسة العسكرية الاسرائيلية اول من شهد بها .

وذابت قوة الطوارىء الدولية في ساعات .

ونصبت المدافع المصرية أمام مضايق تيران !.

وكانت اسرائيل تقول ان مجرد دخول جندي مصري واحد الى شرم الشيخ يعني الحرب ...

ودخلت قوة مصرية قادرة على اغلاق الخليج . وأغلق الخليج فعلاً قبل ان تفيق المؤسسة العسكرية الاسرائيلية من ذهولها ... »

وأنهى مقاله يومئذ بقوله :

« مهما يكن ، وبدون محاولة لاستباق الحوادث فان

اسرائيل مقبلة على عملية انكسار تكاد تكون محققة ... سواء من الداخل او من الخارج » .

هذا ما كتبه هيكل يومئذ ، ولقد اعترف هو نفسه فيما بعد ، في ١٩٦٧/٦/٣٠ أن من الأخطاء التي ارتكبتها القاهرة :

«ان ألفاظنا تعبر في كثير من الاحيان عن أكثر مما تقصده وأكثر مما نستطيعه، على نحو ما كانت تطلقه اذاعتنا عموماً من نداءات بالقتل والسحق ... » .

✡

وقد أحيطت الاستعدادات التي قامت بها الدول الاشتراكية للحرب بضجّة عريضة ، كان ينبغي أن لا تكون . فالعمل الحربي يستدعي الكتمان والصمت ، والاستعداد والمفاجأة والضرب . ولم نسمع قط من العدوّ مثل ذلك . فقد كان يعمل ويجهد بكل صمت وحذر .

نشرت الأهرام يوم ٢١ / ٥ / ٦٧ بعنوان « قواتنا انتشرت في ٢٤ ساعة على جبهة طولها ألف كيلومتر .

وعمقها ٣٠٠ كم . فذكرت أن القوات انتشرت في سرعة مذهلة ، وبنجاح تام ، وكفاءة بالغـة من شرم الشيخ جنوباً حتى رفح في الشمال ، وأن أجزاء كبيرة من سينا تحولت الى مدن عسكرية مجهّزة ضد أنواع القتال ... الى غير ذلك من المديح والثناء .

وعادت الأهرام يوم ٢٥/٥/٦٧ تقول بعنوان كبير :

تنفيذ عملية نقل القوات تمت بكفاءة لا نظير لها .

اسرائيل تحس بالتعاسة الشديدة لان الحرب اقتربت خطوة حاسمة أخرى نحوهـا .

أما مراسل جريدة الجمهورية في الجبهة فكان أكثر انتفاخا . فقد كتب يوم ٢١/٥/٦٧ بعنوان :

في ساعـات يمكن أن نسحق اسرائيل ، بغير استخـدام كافة اسلحتنا في المعركة !

فكان مما قاله : قواتنا المسلحة تنتظر بفارغ الصبر ساعة الصفر لتبدأ المعركة الفاصلة مع اسرائيل .

قال لي الضباط والجنود الذين التقى بهم المشير عبد الحكيم عامر وهم يعبرون القناة الى الخطوط الأمامية : إن أملهم أن يتم على أيديهم سحق اسرائيل .

وقال لي الفريق أول مرتجى : ان الموقف اليوم يختلف تماماً عن الموقف عام ١٩٥٦ ... فقد انتصرنا عام ١٩٥٦ ولم تكن اسرائيل وحدها ، ولكن انتصارنا اليوم سيكون ساحقاً اذا حدث الاشتباك .

وقبل أيام ، كانت الجمهورية تؤكد أيضاً السحق والاستعداد . ففي ١٧ مايو كان عنوان الصفحة الأولى فيها : الجمهورية العربية استعدت لسحق العدوان بامكانيات عسكرية ضخمة، وعلى نطاق شامل لم يسبق له مثيل .

تهديدات اسرائيل لا تثير المفاجأة أو القلق .

لأنها كانت متوقعة حسب التخطيط الأميركي .

* *

وتبجحت القاهرة بتأييد بعض الدول الاشتراكية والافريقية لها . فنشرت الأهرام في ٢٨/٥ خبراً بعنوان :

سيكوتوري يضع جيش غينيا تحت تصرف الدول العربية ...

لكننا لم نسمع بعد أن الجيش الغيني قد سمع له أي صوت في معركتنا مع العدو !

وذكرت الأهرام يوم ٤/٦/٦٧ أن آلاف المتطوّعين يتقدمون للقتال ضد اسرائيل .

ولكننا لم نرَ أيّ أثر لهؤلاء المتطوّعين أيضاً .

**

ومن هذا الباب أيضاً ما كانت تنشره الصحف من أقوال صحف الاشتراكيين تمجيداً لمصر .

فنشرت الأهرام في ٢٨/٥ خبراً عنوانه : فيتنام الشمالية تعلن أن إغلاق خليج العقبة صفعة للغطرسة الاميركية .

ونشرت خبراً آخر نفس اليوم أن صحيفة قبرصية نشرت أنّ مصر تنوي توجيه ضربة ساحقة للقواعد البريطانية في قبرص إذا ما استخدمت ضد العرب .

وكل هذه الأَقوال لم تفدنا شيئاً ، ولم تنقذنا ساعة الحَرَج ، وكانت موّجهة للجماهير لتخديرها .

* *

ومن الخدع التي اتبعتها اسرائيل ، أنها أظهرت نفسها خائفة قلقة مرتاعة . فأخذ يصدر على المسئولين فيها تصريحات من هذا النوع ، كان قصدهم منها استجلاب عطف الدول الكبرى ، والرأي العام العالمي . فأخذت صحف القاهرة هذه التصريحات على أنها حقائق ، ضَجَّتْ بها لتعلن أن مصر قوية جبارة تخيف اسرائيل .

وهذه أمثلة من هذه الأخبار والتصريحات :

<u>**آبا ايبان يصرح أن الجمهورية العربية المتحدة قضت في**</u>

عشر دقائق على عمل اسرائيل في عشر سنوات» (الاهرام ٣٠/٥/٦٧)

«مصدر اسرائيلي مسئول في القدس يصرح أن الذي لا شك فيه أنّ عبد الناصر هو سيّد الموقف» (الاهرام ٢٢/٥/٦٧).

«اسحاق رابين رئيس هيئة أركان الجيش الاسرائيلي يصرّح ان اسرائيل ليست قادرة على وقف أي هجوم عربي. (الاهرام ٢/٦/٦٧).

**

وكتبوا عن الصواريخ المصرية: الظافر والقاهر والرائد، وعرضوا بعضها في العرض العسكري يوم ٢٣ يوليو ذات مرة، وصرّح المسئولون مرة أن هذه الصواريخ تصل الى شمال إسرائيل من السويس. وفرح العرب وهلّلوا للظافر والقاهر. ولكن هذه الصواريخ جمدت اثناء المعركة. ولم تنطلق لتهدم اسرائيل. وتساءل الناس: أين هي؟ ولماذا لم تنطلق؟

ثم علموا أن العدو استولى عليها سالمـــة . ثم نشرت الصحف الناصرية (الأنوار ٢٧ / ٩ / ٦٧) ان هنـــاك خيانة . ثم نشرت الصحف على لسان خبير ألماني كان يعمل في برنامج الصواريخ في القاهرة منذ خمس سنين « أن هذه الصواريخ لم تكن حربية في الأساس ، بل كانت للأبحاث في الطبقات العليا من الجو (الحيـاة ١٧ / ١٠ / ٦٧) .

وكانت جريدة الأنوار البيروتية قد ذكرت أن الصواريخ السوفياتية الصنع التي تملكها مصر ، يجري حولها تحقيق في تكتم شديد لمعرفة سبب عدم استخدامها. وذكرت أن التحقيق يتناول عدداً من كبار الضباط منهم قائد القوات الجـويّة ، ومدير أمن المشروعات الحربية الخاصة ، ومدير مصنع الصواريخ ، ومـدير مصنع الطائرات ... (الأنوار ٢٧ / ٩ / ٦٧) .

*

ولعل من العجائب التي تسجل في هذا الباب ما نشرته الأهرام في ١ / ٦ / ٦٧ في صفحتها الأخيرة . بعنوان :

١٦٠ ألف صورة من عبد الوهاب وحليم ونجاة وشادية الى قواتنا . فقالت إن مجدي العمروسي مدير صوت الفن بدأ بطبع ٤٠ ألف صورة لكل من عبد الوهاب وحليم ونجاة وشادية ، على كل منها اهداء من صاحبها ، سترسل غداً الى جنودنا الرابضين في الجبهة ... »

*

واذا كانت الصحافة المصرية قد اشتطّت في التبجح والغرور والطنطنة ، فقد ذهب الرئيس المصري نفسه في ترحيبه بالحرب ، وتحديه للدول الكبرى حداً بعيداً . ففي يوم ٢٢ مايو زار الرئيس مركز القيادة المتقدمة للقوات الجوية ، وخطب قائلاً:

إن العلم الاسرائيلي لن يمر من خليج العقبة ، وان سيادة مصر على مدخل الخليج لا تقبل المناقشة ، واذا ارادت اسرائيل ان تهدّد بالحرب نحن نقول لها : اهلاً وسهلاً » (الاهرام ٢٣ / ٥ / ٦٧) .

ثم قال : نحن الآن وجهاً لوجه معهم. واذا ارادوا ان

يجربوا بغير بريطانيا وفرنسا فنحن في انتظارهم ونحن نعلم ان امريكا تؤيدهم مرة اخرى .

وخطب الرئيس مرة في مجلس الأمة (٦٧/٥/٢٩) فقال :

« لا ترهبنا امريكا وتهديداتها ، ولا يرهبنا العالم الغربي كله وتحيزه لاسرائيل . واذا كانت امريكا وبريطانيا تتحيز لاسرائيل فاننا نقول : إن عدونا ليس فقط اسرائيل ، ولكن اعداءنا هم اسرائيل وامريكا وبريطانيا ، وسنعاملهم معاملة الاعداء !

ثم اضاف : واني احب ان اقول لكم اليوم ان الاتحاد السوفياتي هو دولة صديقة لنا يقف معنا موقف الصديق ، وابلغني شمس الدين بدران بالأمس رسالة من رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي يقول فيها : ان الاتحاد السوفياتي يقف معنا في هذه المعركة . »

أحقاً لا قيمةَ لأمريكا وبريطانيا ؟ أحقاً كان الاتحاد السوفياتي صديقاً لنا ؟ لقد أثبتت الحوادث أن أمريكا أثّرت تأثيراً كبيراً (في الأمم المتحدة) في العمل ضد العرب ، وضد القاهرة ، بل ضد

الرئيس المصري بالذات . وأثبتت أيضاً ان الاتحاد السوفياتي خان العرب ، قبل الحرب . وعندما أصبنا بالضربة التي لا تُنْسى ، مدى الأيام والعصور ، جاء بمساعيه التي لم تنجح ، بعد أن فات كل شيء .

وقد ذهب الرئيس المصري الى أبعد من ذلك أيضاً . فقد أعلن في مجلس الأمة يوم ٢٩ / ٥ / ٦٧ :

« ان الدول الغربية اذا تنكّرت لنا واستهزأت بنا واستحقرتنا ، نحن العرب ، فعلينا ان نعلمهم كيف يحترمونا ويعملوا لنا الحساب »

ومن المؤسف أن الاشتراكية المصرية هي التي دفعت الثمن بعد ذلك .

* *

ولم تتنزة الثورية السورية عن الطنطنة والغرور . ففي يوم ١٧ أيار نادى المذيع في إذاعة دمشق بالشعب العربي :

« سنواجـه كل التحديات ، وسنضرب بيد من حديد على كل المؤامرت وسننتصر في فلسطين ! »

وجاء في نـداء آخر « ان المناضلين العرب يقفون على اهبة الاستعداد ، فلنشعل الارض تحت اقدام الاعداء ! وليضع المنـــاضلون ايديهم على الزناد ، فقد دقت ساعة الخلاص » (الحياة ١٨ / ٥ / ٦٧)

*

وثمة أمر آخر ظهر فيه الغرور في مصر واضحاً . هو الاعلانات . فقد كان في مصر عادة قديمة ، في العهد الملكي ، أن ترسل المحلات التجارية والشركات التهاني الى المليك في كل مناسبة . وظلت هذه العادة في العهد الاشتراكي . وكانت هذه الاعلانات وسيـلة للملق والنفاق للملك ، وقد رفعوا اسم فاروق منها ووضعوا اسم حكّام القـــاهرة . فبمناسبة سحب قوات الطوارىء ، والاستعداد لسحق اسرائيل في ساعات ، تبارت الشركات بالاعلان ، مع إظهار تمنياتها.

غير ان عبارات التمنيات كانت مما يلفت النظر ،

ولا بد للمؤرخ أن يسجّلها .

فالرئيس المصري في هذه الاعلانات « قد اصطفاه الله ، وحمّله أمانة احقاق الحق ، والحفاظ على تراث الرسل والأنبياء ... »

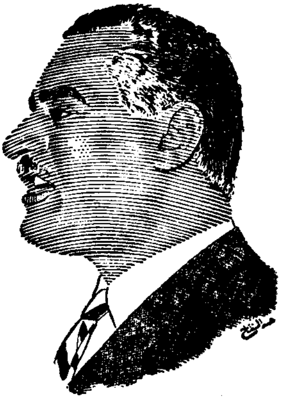
وهو رئيس « لواؤه منصور » ، أما جنود ناصر فهم « عمالقة النصر » الذين سيسحقون العدو ويستردّون الأرض السليب . وللتاريخ والذكرى نرى إثبات صور لبعض هذه الاعلانات .

إلى النصر ..
ياعمالقة النصر ..

الاهرام ٢٢/٥/٦٧

سيادة الرئيس البطل، والقائد الملهم جمال عبد الناصر

رئاسة الجمهورية - مصر الجديدة



في غمار هذه اللحظات الحاسمة في
تاريخ البشرية .. ومن وحي قداسة
الموقف الذي اصطفاك الله له فحملك
أمانة إحقاق الحق والحفاظ على تراث
رسله وأنبيائه في عصرنا الذي تحالفت
فيه أضخم قوى الشر والبغي مع الصهيونية
العالمية عدوة الله وخصيمته

نعلنها للعالم أجمع

بأن الكفاح تحت لوائك المنصور بعون
الله هو غاية توصلنا إلى إحدى الحسنيين
إما استشهاد في سبيل دعوة الحق يتبعها
خلود عند الله .. أو عزة في الأرض
قد وعدها الله جنوده الأوفياء

فنحن وراءك جميعاً نستهين بالفداء
من أجل أنبل غاية وأشرف مقصد
للإنسان على هذه الأرض

عن العاملين

بالشركة الشرقية للدخان والسجاير

الجماعة القيادية

الأهرام ١/٦/١٩٦٧

هذه الأمثلة التي سقناها تكفي للدلالة على ما أسميناه ورم الغرور .

هذا الغرور هو الذي قادنا الى الهلاك .

وجعلنا ننتفخ ، لكي ننفسّ في أول نامة ، ولا أقول أول صدمة .

وجعلنا نُكثر من الكلام ، بأكثر ما نستطيع ، وبأكثر ما لدينا .

وكان كلامنا فارغاً ، نحيفاً ، سامّاً ، أضرّ بنا في الداخل وفي الخارج .

وكان الأقدمون على حقّ عندما جعلوا الصمت من ذهب !

وقد جرت العادة أن لا يقول القويّ إنه قويّ ، ولا يتبجّح ، بل يترك ضرباته تُظهر قوته .

ولكنّ الغرور أعمانا ، فتكلّمنا ، وتبجّحنا ، وطنطنّا، وكانت أحلاماً فرحنا بها ، وخدّرنا الشعوب برفّاتها ، ثم ذهبت هباءً مع الهواء .

الفصل السادس

سيادة الغوغائية.. وفقدان الوعي الشعبي

اعتمدت الاشتراكيات الثورية على الغوغائية لكسب الرأي العام في صفوف الطبقة الدنيا من غير المتعلّمين، وانصاف المثقفين وغيرهم. ويختصُّ هؤلاء بصفة الجهل، وانعدام ملكة النقد، والتأثّر بسرعة.

وقد استطاعت الاشتراكيات الثورية جذب العمال والفلاّحين والأمّيين بزعمها أنها جاءت من أجلهم ولسعادتهم، فأنساقوا وراءها. فهي تحاول دائماً في سبيل تثبيت حكمها أن تتحدّث الى هؤلاء العامة بلغتهم، وأن تداعبَ أهواءَهم، وتُثير غرائزهم، وتنفخَ فيهم الغرورَ والتبجّح. وأخذت تردّد تعابير خاصّة تُلْهِبُ بها مشاعرهم: كالاستعمار، والامبريالية، والاستعمار الجديد، والرجعية، مما اقتبسته من قاموس

الشيوعية ، لتسخّرهم لمـآربها . فهؤلاء الرعاع والهمل والأميين والمرتزقة هم الذين يطلقون الهتافات بحيـاة هذا الدكتاتور وإسقاط ذلـــك الرئيس . وهم الذين يردّدون شعارات لا يعرفون معناها ولا مرماها ، وهم الذين يحملون اللافتات في الشوارع، ويحطّمون واجهات المخازن ، ويُحرقون المحالّ ، والدور والمعامل . وقد شهدنا أعمالهم بعد نكبة ٥ حزيران .

هؤلاء السطحيّون المخدوعون هم الذين يتسلَّطون على الناس ، وهم الذين يهدّدون ، وهم الذين ينفذون جرائم الاغتيال ، وهم الذين يلقون القنابل على الصحف والدور للإرهاب .

وقد سلكت هذه الإشتراكيات لنشر الغوغائية واستخدامها: الاذاعة، والصحافة، والخطب الرسمية . فكان «صوت العرب»، في أيام أحمد سعيد، مدرسة هدّامة في التوجيه، أو في الايحاء، أو التشويق الى الثورة ، أو التشجيع على أعمال العنف، أو التطاول على الناس. وكان أحمد سعيد ــ الذي طرده الرئيس المصري فيما بعد ، لأنه

أذاع يوم استقالته: الأشخاص يزولون والأنظمة تبقى – كان هذا أمّة وحده في الشتم والسب. كان صوت العرب منبراً للتضليل والتهييج بدلاً من أن يكون منبراً للتوعية والتثقيف.

ولم يتأخر المسئولون في القاهرة ودمشق عن اتباع النهج نفسه في خطبهم الرسمية أيضاً من إثارة غرائز الجماهير، واستخدام الجماهير لتحقيق أغراضها.

وأجمع السياسيّون على أن السيد أحمد الشقيري، كان لايتكلم إلا ليثير الجماهير، دون أن يدرك نتائج خطبه. وأجمعوا كذلك على أن خطبه وتصريحاته كانت أقوى سلاح في أيدي اسرائيل ضد العرب في أوروبة وأمريكا. لأن الدعاية الصهيونية كانت تأخذها، ومافيها من تهديد بالسحق والقتل والذبح أو الرمي بالبحر، وتنشرها في الصحف العالمية، واصفة العرب بالمتوحشين، السفاكين للدماء، الذين يريدون أن يمنعوا شعباً متمدناً من حق الحياة (كذا!). فكانت الصهيونية تستثير العطف العالمي بما يقوله الشقيري، وكانت تستدر الأموال والإعانات باسم

ذلك. وكان الشقيري أعجز من أن يزحزح يهودياً عن مكانه. حتى بلغ سوء الظن ببعض السياسيين العرب أن اتهموا الشقيري بالعمل لصالح اسرائيل بسبب نتائج تصريحاته، التي لا تستند الى الحكمة والدهاء.

وقد سألتُ السيد الشقيري عن تصريحاته هذه، يوم اجتمعتُ به ببغداد في أوائل نوفمبر ١٩٦٧ فنفاها نفياً قاطعاً. وقال: إن اسرائيل هي التي شوّهت خطبي وتصريحاتي ونسبتْ إليّ ما لم أقله.

وقد اعترف الشقيري نفسه في حديث له بعد النكبة، أنه فشل في كل شيء من أجل فلسطين، من البندقية الى الهوية (مجلة الحوادث البيروتية، العدد ٥٧٠، ١٣ تشرين الأول ١٩٦٧).

وقد كانت الأُسس التي تعتمد عليها هذه الاشتراكيات في الغوغائية هي اكتساب الجماهير بالدعوة الى التطرّف دائماً، ورفض الحلول الواقعية المعقولة، فالذي يدعو مثلاً الى السحق والمحق والذبح بطل قومي. والذي يدعو الى حلّ الأُمور بشكل واقعي

مدروس لا خيالي ، هو رجعي خائن عميل للاستعمار .
ولما كانت العامة تصدر في معظم أعمالها وآرائها عن الغريزة ، والبداهة ، فقد كان التطرّف يمثّل عندها القوّة ، والقوّة تؤثر في العوام ويهتزون لها . أما العقل فهم بعيدون عنه .

وساعد على نجاح هذه الغوغائية فقدان الوعي عند العامة . فهي ما تزال كالقطيع ، أميّة في أكثريتها ، تصدّق كل ما تسمع ، ليس لديها الحاسة النقدية التي تنبهها الى التفكر والشك . وهي لا تعرف واقعها وما يحيط بها . تتعلّق بالأوهام والأحلام والأماني، وتتعلق بالأشخاص الذين يخيّل اليها أنهم أوتوا صفات الرجولة والبطولة والقوة والكمال . أو الذين يعرفون مداعبة أهوائها وأحلامها . وهذا التعلق قد يُعمي البصر، ويُفقد العقل . وقد رأينا هؤلاء العوام يُقيمون الأفراح، ويُطلقون الهتافات لعودة الرئيس المصريّ عن الاستقالة، واسرائيل تحتل الأرض العربية . ثم رأيناهم يبرّأون الرئيس المصري ويلصقون أسباب النكبة بأعوانه،

رغم أنه نفسه كان منصفاً وأعلن أنه هو المسئول .

ولم يقف عمي القلب عند هؤلاء العامة ، فنحن نجد بعض الذين يدّعون الثقافة يُغالون في اسباغ المعجزات على هذا الرئيس أو ذاك . وإتماماً للبحث نذكر بعض النماذج . فقد أرسل خالد محمد خالد وهو أديب معروف ، برقية للرئيس المصري نشرتها الجمهورية في ١ يونيه جاء فيها :

« **إن مقدرتك الفائقة على صنع المواقف العظيمة لتمنحنا الأمل الوثيق في نصر عظيم .. »** .

وكتب الكاتب نفسه في يوم ٢ يونيه في الجمهورية مقالاً ، أعطى الرئيس المصري صفة الباعث من الموت ومن المراقد، الذي يحوّل الناس الى خلق جديد . فقال:

«من الذي بعثنا من مرقدنا .

ما الذي جعل الشمس تشرق فجأة من بلادي .

ما الذي جعل التاريخ يهرع اليها ويلقي على ابوابها رحاله

إن الارض التي ننهض اليوم فوقها ليست هي الأرض التي كانت من قبل ، إنها أرض جديدة .

والسماء التي تظللنا اليوم الأخرى الأخرى سماء جديدة ،

والناس، جميع الناس، حوّلتهم المعجزة الى خلق جديد . فيا أيها الرجل ، يا أيها البطل الذي اختارتك المقادير لترفع في وجه الظلمات مشعل الحق والحقيقة ، لك التحية ولك التأييد . (الجمهورية ٢ يونيه) .

ومثـــل هؤلاء الذين ينتسبون الى المثقفين ، ويُغالون في عبادة الأشخاص غير قليلين .

* *

على أن هذه العامة اذا كانت تنساق في تيّـار الدعاية ، وتطرب للأساليب الديماغوجية ، فإن الذنب ليس ذنبها . ذلك لأنها تستمع دائماً الى صوت واحد ، ويأتيها التخدير من ناحية واحدة . ولو أن الدول العربية ، غير الاشتراكية ، حاولت توعية هـــذه الجماهير ، وتبيان الحقائق لهـا ، ودعتها الى مبادئها الأخلاقية ، وأوضحت بطلان دعاوى أولئك وتضليلهم ، لـكانت الاشتراكيات عاجزة عن بلوغ ما بلغته من تاثير عند العوام . ولا اعتقد أن نجاح الإشتراكيات كان لمقدرتها بقدر ما كان لضعف الدول العربيـة الأخرى في الردّ عليها . لقد ساعدت هذه الدول بسكوتها

وتقصيرها على تثبيت الارهاب الإشتراكي في البلاد .

ومن المؤسف أن الاعلام الحكومي لم يلعب دوره لتوعية الشعب وتثقيفه ، ليستطيع أن يميّز الحق من الباطل . كان الإعلام في أحيان كثيرة مخدّراً للشعب ، وكان غامضاً لا يعتمد الصراحة ، ولم يكن إيجابياً بل كان سلبياً .

ان الحكومات الراقية تعمد الى توعية الشعوب ، ومصارحتها بالأمور والمشكلات التي تواجهها ، داخلياً وخارجياً . أما نحن فكان سبيلنا التمويه ، والتنويم ، والزعم بأننا أحسن حالاً من العدو ، وأننا أقوياء ، وأننا سننتصر . إن في اخفاء الحقائق عن الشعوب قتلاً للحافز الوطني ، وإلهاءً وتخديراً لها . فبدلاً من أن نوعّي الشعب ليصبح مساعداً للدولة على إبعاد الأخطار وتحمل المسئوليات ، نحن نثير غرائزه ، ونسخرها لما نريد ، أو نخفي عنه الحقائق ، أو نحمي المخرّبين والهدّامين .

فكيف ننتصر بعد ذلك كله ؟

الفصل السابع

هزال الدبلوماسية العربية

الدبلوماسيةُ هي فنٌّ تحسين العلاقات بين الدول، وفن اكتساب الأصدقاء في المحيط الدولي ، وفن الدعاية لبلاد الممثل الدبلوماسي وتوثيق عُرى التعاون بينها وبين بلاد أخرى .

وقد كان العرب الأقدمون أفهم من جيلنا الحاضر بالدبلوماسية ، وكتاب «رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة» الذي ألّف قبل ألف سنة، دليل على ما نقول.

ورغم اتصال دولنا العربية بالغرب ، واقتباسها الأصول الدبلوماسية منه ، فإن هؤلاء الدبلوماسيين ظلّوا دبلوماسيين بالإسم لا بالروح . فالأكثرية فيهم غير أكفاء ، ولا يتقنون فن الدبلوماسية .

وهزال دبلوماسيتنا العربية في المحيط الدولي ، يرجع الى أمرين :

١ً ــ ضعف الجهاز الدبلوماسي .

٢ً ــ فقدان دبلوماسية عربية موحدة قادرة وبارعة.

أما الأمر الأول ، فإن غالبة الدبلوماسيين تنقصهم الثقافة المستمرة بشئون السياسة العالمية . فنحن لا نعدّ الدبلوماسيين الصغار إعداداً حسناً . أما الكبار فهم ــ وخاصة في العهود الأخيرة ، وفي ظل الإشتراكيات ــ إما غرباء عن السلك،نقلوا الى الدبلوماسية للخلاص منهم في ميدان آخر، وأكثرهم من العسكريّين غير العقائديين، وإمّا روتينيّون ينتظرون الأوامر.

وهؤلاء وأولئك في سلوكهم الشخصي لا يخدمون دولتهم بقدر ما يخدمون أنفسهم .

هم يحضرون الحفلات وقد يقيمون الحفلات . ثم لا تطلب منهم أبعد من ذلك • فقليلون هم الذين يقومون بنشاطات تخدم بلادهم في شتى النواحي .

وقد أتيح لي أن أطوف في بلاد كثيرة من بلاد العالم، وكنت ألقى الدبلوماسيين العرب من دول شتى . وكنت

أعيش بينهم فترة من الزمن ، وأراقب سلوكهم . فكنت ألاحظ أن الكثيرين لا يدرون شيئاً عميقاً عن البلاد التي هم فيها ، وأنهم لا يعرفون أحياناً جيداً لغة البلاد ، وأنهم قد لا يقرأون الصحف ، وأنهم يعيشون منعزلين ، لا علاقات شخصية لهم مع رجالات البلاد ، من مختلف الميادين .

وقد كان في البلاد العربية قبل قيام الثورات الاشتراكية ، قيود وتقاليد لاختيار الدبلوماسيين ، ولكن الثوريات هدمت كل القيود. وملأت السلك الدبلوماسي بالضباط العسكريين ، الذين قد يحسنون رمي القنابل ولكن ليس استجلاب القلوب .

ولقد رأيت بعيني سفيراً من هؤلاء أصله من الريف، يمشي في شوارع مدينة عظيمة في أوروبة ، ويجرّ وراءه ثلاثة أطفال ، وامرأته تجري مسرعة وراءهم ، بشكل عجيب. وهم جميعاً يتنادون ويتصايحون كأنهم في قريتهم.

وعرفتُ سفيراً آخر من بلاد غير اشتراكية قيل إنه حمل معه يوم نقل من عمله سبعين سجادة ايرانية من أفخر

السجاجيد ، ومجموعة نادرة من النقود الساسانية لا توجد في أعظم المتاحف ، وما كانت رواتبُه كلهّا التي قبضها تكفي لشراء جزء صغير منها . وكان معلماً فقيراً قبل أن يصبح دبلوماسياً .

وعرفتُ دبلوماسيين همهم المتاجرة بكل ما يضمن لهم الربح،أو اقتناص اللهو بكل انواعه .

فالدبلوماسية إذن عند الغالبية ، طريق للثراء ، أو النزهة ، أو اللهو . فكيف يمكن أن يكون اشباه هؤلاء دُعاة للبلاد العربية ، وكيف يستطيعون أن يقوموا بواجبهم حيال وطنهم ؟

وعلى هذا ، فإن القلائل من الدبلوماسيين البارعين الأكفاء المخلصين الأمناء الذين يوجدون الى جانب تلك الكثرة ، لا يستطيعون أن يقوموا بكل شيء . إن اليد الواحدة لا تصفّق وحدها .

واذا كان هذا حال دبلوماسيينا في السفارات المختلفة فإن دبلوماسيينا في المجتمعات الدولية ليسوا أحسن حالاً . وقد ظهر ضعفهم السياسي واضحاً ، وظهر جهلهم في

التكتيك والمداورات، وعجزهم عن القيام بالاتصالات على مختلف المستويات . وقد رأينا بعض رؤساء الوفود في الامم المتحدة لا يجيدون الكلام ، ولا يعرفون ماذا يجب أن يقولوا ، ورأينا بعضهم يحرص أن يقول ، كلاماً فارغاً ديماغوجياً ليرسله الى صحف بيروت ، فيظهر أنه من الأبطال !

* *

أما الأمر الثاني : فهو انعدام دبلوماسية عربية واحدة .

فقد كانت الدبلوماسية العربية ، قبل قيام الإشتراكيات ، ذات وجهات متقاربة . وكان التشاور بين الدول العربية في كثير من الأمور الخارجية ، وحتى الداخلية أحياناً ، متّبعاً . لكن مجيء الإشتراكيات ، قضى على التشاور الدائم المستمر ، وباعد بين الدول العربية.

فالدبلوماسية عند دول العالم هي فن اكتساب الأصدقاء ، أما عند الإشتراكيات العربية فهي فن اكتساب الأعداء .

والدبلوماسية تهدف الى تحقيق مصلحة البلاد ، مهما كانت الجهة التي تحقق هذه المصالح . لكن الاشتراكيات اتجهوا نحو جهة واحدة وعادوا الجهات الأخرى .

وعلى الأرض توجد أكثر من مئة دولة ، فعـــادتها الإشتراكيات واتجهت نحو الاتحاد السوفياتي .

ولم نقف عند المعاداة ، بـل تمادينا في الشتم والسب والتشهير ولم نعرف حدّنا ، وأردنا أن نؤدّبهم ونعلّمهم حتى يحسبوا لنا حساباً .

صادقنا كوبا مثلاً ، وعندما جـاءت مناقشة الأمم المتحدة لإجلاء اسرائيل ، وجدنا جميع دول أمريـــكا الجنوبية تعادينا ، لأنها غير راضية عن كوبا ، ولأن القاهرة معها .

فماذا أفادت البلاد العربية من كوبا ؟

وماذا فعلت كوبا لتحرير الأرض العربية من العدو؟ لا شيء مطلقاً بـــل اكتسبنا من ورائها العداوات والسخريات !

وعادينا أمريكا وانكلترا ، لأنهما دولتان استعماريتان ،

وأمعنا في شتم أمريكا، بعد أن أفدنا من معوناتها المتدفقة، وأشدنا بالاتحاد السوفياتي وصداقته لنا، فلما جاءت النكبة لم يُفدنا الاتحاد السوفياتي، لأنه نظر الى مصالحه المرتبطة بأمريكا، أوّلاً، وباعنا بأبخس من البخس.

حتى إن أبو مدين لم يحتمل هذا الغدر السوفياتي، على ما نشرت الصحف، وسافر يوم ١٧ حزيران الى موسكو ليحتج على موقف السوفيات من مصر. وثار بو تفليقه وصرّح تصريحات عدّة ضد الاتحاد السوفياتي.

فماذا فعل الاتحاد السوفياتي الذي تعلَّقت به القاهرة، ودمشق، من أجلنا ؟ وماذا فعلت رسائل كوسيغين الى جونسون ؟

ثم ماذا نتج عن المهزلة المسرحية التي قامت بها روسيا بدعوة الأمم المتحدة الى الاجتماع ؟

إن الاتحاد السوفياتي لم يستطع أن يفعل شيئاً وظهر عجزه واضحاً، وثبت أن الأمر ليس بيده وحده بقليل أو كثير. فرفض مجلس الأمن إدانة اسرائيل أولاً، ولم تستطع الجمعية العامة أن تفعل شيئاً ثانياً، ثم عجز مجلس

الأَمن ثالثاً ... واضطررنا الى التراجع وقبول قرار مجلس الأمن الأَخير .

كل ذلك لأَننا جعلنا الأُمم والدول أعداء لنا. وكان تحدينا للدول الكبرى قد تجاوز حدّه . فتصرّفت هذه الدول مع القاهرة تصرّف العدو ، لأَن الرئيس المصري اعتبرها عدواً ، وتحدّاها .

لقد راعى الاتحاد السوفياتي مصالحه قبل كل شيء. وكانت مصالحه أن لا يهاجم مع الجيش المصري اسرائيل، ولا أن يقضي على اسرائيل .

وظلّ يُراعي مصالحه في كل خطوة ، ولم يتأخر عن الضغط على العرب ، لأَنه لم يستطيع أن يضغط على أمريكا ، فقد صرّح محمود رياض في ١٨/١٠/٦٧ لوزراء خارجية البلاد العربية في الأُمم المتحدة أن روسيا ما زالت تؤيد العرب ، لكنها تُطالب العرب بالتنازل عن بعض مطالبهم! (التلغراف يوم١٩/١٠/٦٧).

فماذا يُطالب العرب الآن غير عودة أراضي العرب اليهم ؟

أهذا هو معنى الوفـــاء والصداقة من الاتحاد السوفياتي الذي أشاد به الرئيس المصري في مجلس الأُمة قبل النكبة ؟

لقد كان وزير خارجية البانيا على حـق عندما صرّح في الجمعية العامة للأمم المتحدة : إن موسكو طعنت العرب في الظهر . (الحياة ٢٧ / ٦ / ٦٧) .

وكدنا نخرّب اقتصاديات بلادنا لارضاء الاتحاد السوفياتي .

ألم تَدْعُ الإشتراكيات الثورية ، الى قطع البترول العربي عن الغرب ، وأثارت الجماهير ، وَربطنا النصر وجلاء اسرائيل بقطع البترول ؟

ألم تخسر البلاد المصدّرة للبترول كل يوم ملايين الدولارات ؟

فماذا كانت النتيجة ؟

كانت ، أولاً ، أن ذهب الاتحاد السوفياتي ليطعن العرب ويفاوض انكلترا ، ليبيعها البترول. فقد نشرت صحيفة الفاينانشال تايمز يوم ٦٧/٦/١٦ إن روسيا تحاول

أن تبيع نفطاً لبريطانيا، محاولة استغلال الوضع الناجم عن الحظر العربي لبيع البترول للغرب ، وأن إتصالات جرت مع عدد من مستوردي النفط البريطانيين بهذا الشأن (الحياة ٦٧/٦/١٧) .

وكانت النتيجة ثانياً أن بدّلنا رأينا ــ وإسرائيل لم تذهب بعد من أراضينا ــ وعدنا ندعو إلى ضخ البترول ، بصوت عال، ونقول « إن وقف ضخ البترول يضعف من إمكانيات الدول العربية اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً . (الاهرام ٦٧/٩/١١) .

وكان ذلك بعد أن أعطت السعودية وليبيا والكويت الإعانات للقاهرة تعويضاً لها عن أضرار الحرب،فسبحان مقلّب القلوب !

ولقد كان خطأ الاشتراكيات الأوّل هو مصادقة الاتحاد السوفياتي وحده ومعاداة سواه :

والمصلحة دائماً تقضي بمصادقة الجميع على السواء .

ولم يكن هناك فارق بين السوفيات واميركا في نظرتهما الى اسرائيل .

فالاميركان يريدون بقاء اسرائيل وعدم الاعتداء عليها ، وجاء كوسيغين يؤكد بقاء اسرائيل وعدم الاعتداء عليها ايضاً.فالطرفان يؤكدان ويحميان حق اسرائيل في البقاء .

والاميركان كانوا يساعدون اسرائيل ، وكانوا يساعدون مصر بقروض مؤجلة السداد .

لكن الاتحاد السوفياتي كان يساعد مصر ويأخذ القطن والسكر والارز ويحرم الشعب المصري منها سداداً لديونه ومساعداته .

وقد نشرت الاهرام يوم ٢٨ / ٥ / ٦٧ قائمة بأسماء الدول التي وقفوا الى جانب مصر قبيل الحرب، وبعد اغلاق خليج العقبة ، فذكرت :

افغانستان، باكستان ، بلغاريا ، تشيكوسلوفاكيا، الجزائر، روسيا ، السودان ، سنغافورة ، سورية ، الصين الشعبية ، العراق، غينيا ، الكويت ، قبرص ، لبنان، كوبا، اليمن، كوريا الشمالية، الهند، يوغوسلافيا، موريتانيا ، مالي .

١٤ دولة ، من أصل مئة واثنتين وعشرين !

فما وزن هذه الدول في الصعيد الدولي ؟ وماذا أنتج وقوفها الى جانب مصر ؟ هل امتنعت اسرائيل عن الهجوم وخافت؟وهل دعم الحق العربي في خليج العقبة؟

لقد كان من الحكمة أن لا تقدم القاهرة على أي محاولة ما دامت عرفت وزن هؤلاء المؤيدين في المجال الدولي ، وكان عليها أن تكتسب أكثر وأكثر من الدول لتكون الى جانبها ، ولتفرض إرادتها .

ويذكر رجال القاهرة أن جونسون طلب اليهم تجنب أعمال القتال وعدم البدء بـه . وكذلك يذكرون أن السفير الروسي طلب اليهم عدم البدء بالقتـال . ويقول حسنين هيكل : « المذهل والمحزن أن هذا الذي يجري على المسرح كان يخفي وراءه في كواليس المسرح مشاهد أبعد مـــا تكون عن الظاهر والمرئي من التصرفات ». (الاهرام ٢٣ / ٦ / ٦٧)

إذن لقد كانت القاهرة من السذاجة أن صدقت ما قاله الاميركان والروس. واذا كان من الطبيعي او الممكن أن

يغش الاميركان رجال القاهرة لموقفهم العدائي منهم، فمن المخزي لروسيا أن تغش القاهرة، ولا تنبّهها الى ما تفعله اسرائيل ومـــا قد بُيت لها . ثم من المحزن للدبلوماسية المصرية أن لا تعرف عن طريق مفوضياتها في العالم نوايا إسرائيل في الهجوم . لقد كانت دبلوماسية ضعيفة عاجزة ، رغم أن الملك فيصل قد استطاع معرفة ذلك ، وارسل ينبّه الحكام العرب الى ذلك ، كما سبق ذكره .

* *

وشنّت القاهرة أعظم هجوم على الدول الاسلامية التي زعمت أنها ألفّت حلفاً اسلامياً .

وكان هذا الحلف قد اخترعته موسكو، وأوعزت الى الاشتراكيات العربية بمهاجمته واتهامه بأنه اداة للاستعمار .

ولم يكن هناك حلف ، وإنما سبقت موسكو لئلا يقوم مثل هذا التضامن الاسلامي فيكون فيه الخطر على إثارة الشعوب الاسلامية المستعمرة في الاتحاد السوفياتي .

وكان الهجوم على الدول الاسلامية أكبر خطأ ارتكبته

القاهرة،لأن هذه الدول تشكل في الميزان الدولي قوة كبيرة.

ومع ذلك فقد عاملت هذه الدول القاهرة ودمشق بما يمليه الخلق الاسلامي الاصيل ، وهبّت لمساعدة العرب مادياً ومعنوياً .

فقد وقف مندوبو تركيا وباكستان وايران في الأمم المتحدة الى جانب العرب ،وقوفاً واضحاً قوياً.

وارسلت باكستان من العون المادي والمعنوي مالا مزيد عليه ، واعترف الرئيس المصري بذلك ، مع ان القاهرة كانت مع الهند ضد باكستان وقضية كشمير .

وقدمت تركيا كما ذكرت الصحف ، نصائحها الى دمشق بأن يكون الحرب في الليل بدلاً من النهار ليعجز الطيران الاسرائيلي عن العمل، وكانت تركيا اتبعت هذه الطريقة في حرب الاستقلال .

وسمحت للقمح المستورد من روسية أن يدخل الى سورية اثناء الحرب ــ وكانت الموانيء السورية مغلقة ــ بطريق اسكندرونة الى اللاذقية، وأمدّتها بخمسة عشر الف طن من السكر .

مع أن الاشتراكيات كانت مع مكاريوس ضـــد المسلمين الاتراك في قبرص .

فنحن إذن لا نجيد الدبلوماسية ، ولا نجيد الغَزَل مع الدول لننال منها ما يحقق مصالحنا، أومايدعم حقوقنا.

وقد اعترف حسنين هيكل في ٣٠ / ٦ / ٦٧ عند ذكره الأخطاء التي ارتكبتها القاهرة فقال :

« اننا لا نحسن عرض قضايانا أمام غيرنا، ونتصوّر أن وضوح الحق في جانبنا يكفي لاقناع غيرنا به، فاذا لم يقتنعوا على الفور فهي النية السيئة من جانبهم .

« واننا نريد أن نقيم علاقاتنا مع الآخرين على أساس الأبيض والأسود وبغير ظلال بين اللونين . .

« وأننـــا لا نتصل بالعالم الخارجي ، بطريقة مباشرة ومؤثرة الا وقت الشدة ، وذلك لا يجعل من علاقاتنا مع غيرنا جسوراً دائمة مفتوحة ، الأهرام ٣٠/٦/٦٧ .

كما اعترف حسنين هيكل فيما بعد في (٢٠/١٠/١٩٦٧) بمايلي :

« لقد كانت الدعاية الاسرائيلية من ناحية والدبلوماسية الاسرائيلية من ناحية ثانية أشبه ما تكونان بفكيْ كمّاشة أمسكتا بقدرة التحرك الدعـــائي والدبلوماسي العربي . واستطاعتا تطويقه حتى من قبل بدء المعركة » .

ثم أضاف :

«ان الدعاية الاسرائيلية والدبلوماسية الاسرائيلية فصلتا بطريق قاطع بين الذين تستطيع اسرائيل أن تعتمد عليهم.. وركزت جهدها لفرض تأثيرهـــا فوقهم ، وبين الذين لا تستطيع اسرائيل أن تعتمد عليهم.. ومع ذلك فانها لم تهمل أمرهم اهمالاً كاملاً .. »

أما دبلوماسيتنا العربية ، وعلى الأخص القاهرة ، فقد قطعت الشعرات ، والجسور .. واعتبرت الدول الكبرى أعـداء ، وأرادت أن تحاسبهم وتعلمهم كيف يحترموننا ، دون أن يكون لديها الوسائل الى ذلك ..

* *

والخلاصة ان دبلوماسية العرب ، ينقصها الكفاءة والخبرة ، والمرونة ، والتلوّن ، ومعرفة الوصول الى الهدف ، والواقعيـة ، وتغليب المصلحـة على الهوى . وتنقصها الوسائل المختلفة التي تخدمها : شخصية كانت أم مادية ، وينقصها الدبلوماسيون الأكفاء الذين يعرفون إكتساب الأصدقاء وإستخراج الأسرار وتحقيق مصالح البلاد .

الفصل الثامن

فقدان الدعاية العربيّة في المجال الدولي

منذ بدأت الإشتراكية الثورية تغزو البلاد العربية، اطمأنت الى مساعدة امريكا لها فأمدتها بالمعونات ، وصرفت عنها في أحيان كثيرة، كثيراً من الأذى، ونبّهتها الى كثير من المؤآمرات . وكذلك اطمأنت الى الإتحاد السوفياتي ، فساعدها بواسطة وسائله الاعلامية وأبواقه اليسارية . فلم ترَ احتياجاً كبيراً الى الدعاية العربية في المجالات الاروبية والاميركية . اللهم الا ما كان خاصاً بالدعاية لشخص معين ، أو للنظام الثورى كله .

على أن هذه الإشتراكية وجّهت كل أجهزتها الاعلامية الى البلاد العربية نفسها ، تدعو فيها لنظامها، وتدعو للثورة في كل مكان ، وتدعو الى قلب انظمة الحكم التي سمتها بالرجعية ، وأطلقت لصوت العرب كل

حرية في الشتم والسب وهتك الأعراض والكرامات والمروءات ، فأتى في تاريخنا الحديث ، بما تقشعر لسماعه الأبدان ، وتندى الوجوه .

أما الحكومات الأخرى ، فلم تهتم بالدعاية لنفسها في المحيط الدولي الا بقدر ضئيل .

ولم تكن الدعاية لفلسطين بأحسن حالاً في المجال الدولي . كانت فلسطين احدى وسائل الديماغوجية فقط التي يثير بها الحكام والرؤساء وزعماء السياسة ، غرائز الشعوب العربية ، وكان هؤلاء يعدونهم بالعودة الى بلادهم ، وباسترداد فلسطين .

وقد أكتفينا من الدعاية لفلسطين أن نقنع أنفسنا أننا على حق . وقد قال لي المستشرق الفرنسي الاستاذ جاك برك : إنكم تترافعون ، أمام بعضكم البعض بأن فلسطين عربية ، وأنكم أصحاب حق فيها . وكان عليكم أن تترافعوا وتقنعوا الجهات التي تنكر عليكم هذا الحق .

ولم تكن الدعاية الموجهّة من المنظمات الفلسطينية بأحسن حالاً . كانت الهيئة العربية العليا وحدها تثابر

على توجيه البيانات وتنبيه الرؤساء من حين الى حين، وتبذل نشاطاً في الأمم المتحدة بواسطة مكتبها، بقدر قدرتها المالية وكفاءة الأشخاص المرتبطين بها العلمية والسياسية. ورغم ما يؤخذ عليها، فإنّها ظلّت تخدم خدمة متواصلة ومستمرة.

أما منظمة التحرير فما كانت إلا شراً على قضية فلسطين. فإن ميلها الى اليسار، وانضمامها الى الصين، والخلافات العنيفة بين أعضائها، وتصريحات الشقيري المشهورة، كل أولئك كان أكبر دعاية في المجال الدولي كله ضد قضية فلسطين، وضد العرب أجمعين.

ولم تستطع جامعة الدول العربية أن تدعو للعرب ولا لفلسطين بواسطة مكاتبها في رومة ولندن وجنيف والارجنتين ونيويورك. وكانت قصّة هذه المكاتب مهزلة من أبشع مهازل هذه الحقبة من تاريخنا المعاصر. لأن المدراء الذين تولوا الدعاية لم يكونوا على المستوى اللائق. أو لأن الوسائل التي كانت لديهم كانت ضعيفة هزيلة، أو لأن التوجيه من الجامعة كان معدوماً.

وبينما كانت الدعاية العربية في المجال الدولي على هذا الشكل كانت الدعاية اليهودية تملأ العالم . وكانت تستخدم جميع الوسائل الإعلامية ، وجميع الطاقات البشرية ، في كل مكان ، حسب مخطَّط مدروس منظَّم .

ولو أنّ الدول العربية كانت متحدة الهدف ، متعاونة متضامنة ، ووضعت خطة موحدة للدعاية ، للعرب ولفلسطين ، واستخدمت الدعاية كما ينبغي وبالشكل الذي يُلائم عقول الغرب ويهزّ عواطفه ، وأنفقت عليها بسخاء وبذل عريض ، واستخدمت لهذه الدعاية ، كل عربيّ في أوروبة وأمريكا سواء كان طالباً أو تاجراً أو دبلوماسياً أو مهاجراً ، كما استخدمت آخرين من العملاء أو المؤلفة قلوبهم ، ولم تترك أيّ وسيلة إلا لجأت اليها ، سواء كانت نشرة ، أو كتاباً ، أو حديثاً تلفزيونياً ، أو محاضرة ، أو تصريحاً صحفياً ، أو معرضاً ، أو كرسياً دائماً في الجامعات الأوروبية والأميركية ، أو زيارات متبادلة ، أو فرقاً فولكلورية وموسيقية ، أو أفلاماً سينمائية أو غير ذلك .

نقول لو فعل العرب هذا لكان لهم شأن آخر .

لقد كان على الدول العربية أن تكسب الأصدقاء، لدى الحكومات الأخرى ، وأن تكسب الأصدقاء من الشعوب ، وأن تقنع الآخرين بحقوقنا ، ومزايانا .

لكننا كنا بارعين في كسب الأعداء ، في كل مكان، حتى أصبحنا نعيش منعزلين ، لكثرة أعدائنا ، وكثرة الذين يقفون على الحياد في شؤوننا .

هذا في الميدان الخارجي . أما في داخل البلاد فإننا لم نستطع أن نجعل الإعلام وسيلة للتنوير والمعرفة ، أو طريقاً لخلق عقلية عربية نيّرة بنّـــاءة . فبرامج الراديو والتلفزيون هزيلة ضعيفة، تتملّق الغرائز ، ولا تهدف الى رفع المستوى العام .

لقد أفلسنا، في الدعاية في الداخل وفي الخارج .

ومن الحق أن ننوّه هنا ، تقديراً منا وإعجاباً ، بالتصريح الذي نشره وزير الإعلام اللبنـاني الاستاذ ميشال ادّه عن موضوع الإعلام . فقد ظهر فيه من الوضوح والصراحة وإصابة الهدف ، ما لم يظهر في أيّ تصريح عربيّ آخر[1] . ويمكن الإفادة مما فيه .

(١) اقرأ نصّه في مجلة الاذاعة اللبنانية ، آب ١٩٦٧ .

الخاتمة

والآن... لنبدأ من جديد

١ً ـ إن شخصية الفرد العربية ، على مختلف أنواعها ومستوياتها، قد أصيبت بأمراض كثيرة أفقدتها أصالتَها، وأكسبتها الكثير من العيوب الواضحة . فلا بُدّ إذن من تنقية هذه الشخصية وتهذيبها، باتباعها سلوكاً فردياً ـ اجتماعياً، يضمن شفاءها، وبإيمانها بقيم روحية تضمن بقاءها.

فلتكن شخصيّة الفرد العربي واقعية لا تنخدعُ بالأحلام. تحب العمل الدائم وتستمر فيه وتقدر عليه . فالعمل الدائم هو قوة .

وتتلاءم مع الزمان وتتطوّر فيه تطوراً لا يفقدها أصالتها . وتتحمل المسئولية دائماً ، فيكون ذلك دافعاً إلى تقدمها ، ولتكن واعية متعلّمة ، منفتحة .

لنحارب الكذب فلا نصغي الى الحكام الكذابين ، ولنحارب الغرور والطنطنة والتبجّح والاستهتار .

والإستطالة على غيرنا . إن هذه الأمراض أودت بنا الى شرّ هزيمة . لقد أعمت أبصارنا ، وزيّنتْ لنا الأماني .

لنحارب الديماغوجيين، وننبذهم من مجتمعنا. ولنعمل على توعية الجماهير لئلا يجوز عليها التضليل والتدجيل .

لنعمل ونعمل بصمت وهدوء وثقة بالنفس .

وإن مشكلة الجماهير الرعاعية من أعقد المشكلات في عالمنا العربي ، فلننتبه إليها .

٢ ـ إن تجربة الإيمان التي مرّت بها الأمم الإسلامية والعربية هي التي دفعتها دائماً الى الأمام ، وأنقذتها من أخطار كثيرة حاطت بها على ممر الأجيال . لقد كانت تجربة ناجحة لا مجال للشك فيها. فلا بُدّ إذن من بعث الإيمان بالله وإحيائه في قلوب الناس . إن انتشار الإلحاد هو الذي يُضعف ويدفع الى الإنحلال ، ويُسبّب الهزيمة أمام كل عدو .

والإسلام دافع قويّ عنيف ، لا يمنع من العلم ولا من القوة ولا من الإخاء .

فلا بُد لها من إنشاء مركز عام للدعوة للإيمان وإيقاظه في النفوس ، ترتبط به منظمات في جميع البلدان العربية والإسلامية . وأن يؤكل أمرها إلى المثقفين الذين أوتوا العلم بالدين وبالثقافة الغربيّة معاً . ويجب أن نضع حداً لرجال الدين المحتكرين أو المنافقين أو الجاهلين .

إن التخطيط لهذه الدعوة أمر ضروري جداً. ولا بد من البدء به ، وأن يُستعان بجميع التجارب الأخرى لوضع تكتيك دقيق منظم ، يُطبّق وينجح .

ومن ناحية ثانية لا بدّ للحكومات العربية التي تريد أن تحافظ على بلادها من الخراب والدمار ، إذا ما وصل إليها الإلحاد ، من القيام بجهود مماثلة لبعث الإيمان بالله والتمسك بالقيم الروحية مهما كان ينبوعها .

ولا بدّ من تطوير برامج التعليم الديني في المدارس ، وجعلها موافقة للعقول متدرّجة ، ملائمة لكل سن . يفهمها الطفل بسهولة ولا ينفر منها ، فتدخل الى أعماق قلبه ولا ينساها .

ولا بدّ أخيراً من نشر الثقافة الدينيّة بين الجنود

ورجال الجيوش العربية والإسلامية ، لكي تكون القيم الروحية دافعاً لهم الى الإيمان وإلى النصر ، وإلى الإبتعاد عن العقائد الهادمة .

٣ً ـ أثبتت الإشتراكيات الثورية ، بعد التجارب التي قامت بها في البلاد العربيَّة ، منذ خمسة عشر عاماً ، أنها فشلت ، لأن عقائدها التي تدعو إليها غريبة لم تنبع من الذات العربية والإسلامية ، وليس لها جذور في ماضينا وتاريخنا وضمائرنا ، وأدياننا السماوية . فلا بدّ إذن من أن تتخلى هذه الإشتراكيات عن الحكم ، لئلا تزيد البلايا والمصائب التي تتنزل علينا .

وإن المقاومة العلنية والسرّية التي تُلاقيها هذه الإشتراكيات ، دليل قاطع على أن المستقبل لن يكون مُشرقاً لها . إن أخطاءها التي ارتكبتها ما تزال تصرخ في كل ضمير ، وتنفخ في كل رأس .

إن التطور المفاجيء المفروض بالقوة الذي أخذت به هذه الإشتراكيات ، أثبت عجزه وإفلاسه . فلا بدّ من

العودة إلى التطور التدريجي الهادف إلى تحقيق عدالة إجتماعية ، بأساليب علمية صحيحة مدروسة .

لقد آن للجماهير العربية أن تصحو وتتخلى عن الأوهام ، وتتمسك بالحقائق ، وأن تُبْعد ثقتها عن الذين فشلوا في تجاربهم .

٤ً ـ إن معرفة النفس هي الْمُنْطَلَقُ لكل تقدّم . فيجب أن نعرف أنفسنا وواقعنا، وأخطاءنا وعيوبنا ونقائصنا. فإذا عرفنا ذلك استطعنا معرفة قيمة سوانا، وعرفنا كيف نتمم نواقصنا ، ونتغلّب على نقائصنا .

اذا استطعنا أن نزيل عيباً من عيوبنا، أو نتحاشى خطأ من الأخطاء ، كل يوم ، ضمنّا الفوز والنصر ، على أنفسنا وعلى أعدائنا .

ولهذا ينبغي أن تكثر الدراسات عن واقعنا كما هو ،

وأن نعرف واقع غيرنا كما هو ، بكل صراحة ، ودون خوف ، لنقترب تدريجياً من الكمال .

٥ً ـ إن تخلّفنا العلمي معيب . لا بُدّ من بذل أوسع الجهود لنلحق بالركب المتعلّم المنتج من الأمم .

إن الغرب سبقنا في هذا المضمار ، فلنتّبع طريقه ، ونتعلّم ، ونأخذ من حضارته كلّ ما يفيدنا . ولتكن نفوسنا قوية لنبتعد عما يضرّنا مما عنده .

لا بدّ من تشجيع علمائنا على البحث في جميع الميادين ، وجمعهم ، ولمّ شعثهم ، وتقديرهم أعظم تقدير ، وإعطائهم كل ما يريدون ، وترغيبهم بكل وسيلة ، لينصرفوا الى العلم وحده ، ويبقوا في بلادنا .

ولا بد من تأسيس مئات المراكز للابحاث في كل بلد ، ولكل علم . وأن يتبرع أغنياؤنا ورؤسانا وامراؤنا لهذه المراكز . فهذا خير لهم من أن تأتي الإشتراكيات وتأخذ أموالهم .

ولنعمل حسب تخطيط علمي ، في كل ناحيــة . التخطيطُ قبل كل شيء. لا بدّ من القضاء على الارتجال.

ولا بد من نشر التراث العلمي العربي القـديم ، ليعرف شبابنا قيمة أجدادهم في ميادين العـلم ، ومن نقل التراث العلمي الغربيّ الحديث الى العربية ليفهمه أبناؤنا.

لنكن في تطوّر صحيح دائم . تطور يقلب التفكير الى حقائق .

بذلك نتقدم ونقوى ، ولا نبقى هامشاً في الحياة .

٦ً ــ إن التضامن العربيّ هو الخطوة الفعالة لوحدة العرب . وحدة تتحقق بشكل تدريجي منظّم علمي ، لا عاطفي انفعالي. ولنُبْعِدْ عن هذه الوحدة شبح الهيمنة والإستيلاء . لتكن وحدة مساواة وإخاء .

لكنّ هذا التضامن العربي لا يؤتي ثماره دولياً وحضارياً إلاّ إذا التأم مع التضامن الإسلاميّ ، حيث نضمن تأييد خمس مئة مليون من المسلمين ، مهما تباعدت أقطارُهم فإنهم لن يكونوا أعداء لنا ، ولن يكيدوا فيدبّروا

المؤامرات ضدنا ، كما يفعل الغرب ، أو يفعل الاتحاد السوفياتي .

٧ً ــ لِنَبْنِ جهازاً دبلوماسياً قوامُه المثقفون المطّلعون المؤمنون ، ذوو المواهب في كسب الأصدقاء، لا الذين يرون في الدبلوماسية وسيلة للّهـو والإثراء والفخفخة الفارغة . إن الدبلوماسية رسالة .

ولنصنع دبلوماسية عربية جديدة ، هدفها تحقيق ما ثبت صلاحه للبلاد العربية جمعاء .

ولننظر الى المصلحة قبـــل كل شيء ، ففي الدبلوماسية لا يوجد عدو دائم ، ولا صديق دائم ، بل توجد مصالح متبادلة يدعمها أصدقاء .

٨ً ــ ليكن هدفنا من الإعلام داخل البلاد : توعية الشعب والأخذ بيده نحو المعرفة والثقافة والفهم. وخارج البلاد: التعريف بها، وبمزاياها ، وخصائصها، وحقوقها. وإسهامها في البناء الحضاري الإنساني ، وجلب الأصدقاء إليها .

ولتحاول الحكومات رفع مستوى الصحافة ووسائل الإعلام ثقافياً ، فلا يعمل فيها المرتزقون والجاهلون. إن الإنتساب إلى الصحافة يجب أن يقيد بشروط قاسية. أولها ضمان ثقافة الصحفي ومعرفة مهنته،وصفاء خلقه.

* *

وبعد، فهذا عرض سريع لأسباب النكبة في رأينا. وقد يكون هناك أسباب غيرها ، حبّذا لو كشفها الآخرون . وقد عالجناها بصراحة وإخلاص . إن النكبة كانت عظيمة باعتراف الرؤساء جميعاً ، واعتراف الأمة كلّها . وإن نكبة مثل هذه لجديرة بمثل هذه الصراحة ، فإن محاولة إخفاء العيوب ، وستر الأخطاء خيانة لا بُدّ من أن نبتعد عنها إذا ما أردنا الحياة .

الفهرس

دار الكتاب الجديد